روايات مصرية للجيب

زهور بين الأشواك

Looloo
www.dvd4arab.com

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

زهـــور

فى بستان الحياة دائماً ركن مضىء ..
حيث تنبت الزهور ..
زهور الحب ..
أوراقها قلوب الهوى ..
فروعها نبض الأمل ..
عبيرها دفء الحياة ..
أشواكها لا تدمى ..
رحيقها لا يذوى ..
فى كل رواية دعنا نتأمل زهرة ..
وفى عطرها نغمس الأوراق والأقلام ..
ثم إليك نهديها ..
فتعال نتنقل معاً ..
وسط ربوع البستان ..
من زهرة إلى زهرة ..

د. نبيل فاروق

١ ـ عيناها ..

« لا تفقد الأمل أبدًا يا بنى » ..

ترددت تلك العبارة فى ذهن (نجيب) ، كما يحدث دائمًا ، كلما أتى إلى ذلك المكان ، وجلس فى انتظار دوره ..

ترددت مع باقى حديث الدكتور (حسن) ، وهو يراجع كل الفحوص الطبية ، التى أحضرها إليه هو ، ثم يلتفت إليه ، مستطردًا :

ـ الطب يتقدم باستمرار ، وبسرعة تفوق حتى تصوراتنا ، وما يبدو اليوم مستحيلًا ، قد يصبح أمرًا بسيطًا فى الغد القريب .

يومها ازدرد (نجيب) لعابه فى صعوبة ، وهو يسأله بصوت مختنق :

ـ أيعنى هذا أنه ما من أمل حاليًا فى الشفاء ؟

تراجع الدكتور (حسن) فى مقعده ، وقال :

ـ من قال هذا ؟ .. ربما لا يكون هناك علاج حاسم لحالتك ، فى الوقت الحالى ، ولكن من قال أن الشفاء مستحيل .

ثم عاد يميل نحوه ، مستطردًا :

ـ إننا بشر يا ولدى .. وصحتنا وأرواحنا كلها فى يد الخالق عزَّ وجلَّ .. وهو وحده يملك الشفاء ، حتى وإن قال الطب عكس هذا .. لا تفقد الأمل أبدًا يا بنى .. سأرسلك إلى قسم العلاج الإشعاعى ، فى مستشفى الـ ...

لم يشأ (نجيب) أن يواصل ذكرياته ، عند هذا الحد ..

لم يكن يحتاج فعليًا إلى إستعادة هذه الذكريات ..

الواقع الآن هو السيِّد ..

ها هو ذا يجلس فى قسم العلاج الإشعاعى ، ويتلقى علاجًا منتظمًا منذ عدة أشهر ، دون أن تلوح فى الأفق بادرة أمل فى الشفاء ..

ودون أن يأتى ذلك الغد ، الذى تحدَّث عنه الكتور (حسن) ..

الغد الذى يحمل العلاج ..

والأمـل ..

ومن أعماقه ، أطلق (نجيب) تنهيدة قوية ..

تنهيدة حارة ، جذبت انتباه الجالس إلى جواره ، فالتفت إليه ، ومال نحوه ، قائلًا فى خفوت :

ـ هل تشعر بالملل ؟

التفت إليه (نجيب) ، وتطلَّع إليه لحظة فى صمت ، دون أن يجيب ..

كان واحدًا من الوجوه المألوفة ، التى يطالعها فى كل مرة ، يأتى فيها لتلقّى جلساته العلاجية ..

وواحدًا ممن حاولوا أكثر من مرة مجاذبته أطراف الحديث ..

وكالمعتاد .. وكما يحدث فى كل مرة ، تمتم (نجيب) فى اقتضاب شديد ، وهو يشيح بوجهه بعيدًا :

ـ كلَّا .

لم يكن يرغب أبدًا فى تبادل الحديث ، مع أى مريض ، من أولئك الذين يشاركونه موعد تلقّى الجلسات العلاجية ..

لقد استمع أكثر من مرة إلى أحاديثهم ..

أحاديث المرض والألم والعذاب ..

وهو يكره خوض مثل تلك الأحاديث ..

لقد كان طوال عمره ، واحدًا ممن يميلون إلى المرح ، ويعشقون لحظات السعادة والفرح ..

ولم يبغض فى حياته كلها قدر الحزن ، وأحاديث الألـم والمرض ..

ولهذا أبعد نفسه دائمًا عن الآخرين ..

ولهذا أيضًا ، تراجع محدثه ، وانكمش فى مقعده ، وقد تذكَّر أن (نجيب) هذا لا يتبادل الحديث مع الآخرين أبدًا ..

إنه ينتقى دائمًا مقعدًا قصيًّا ، فى ركن قاعة الانتظار ، ويلتصق به صامتًا ساكنًا ، حتى يحين موعد جلسته ، التى تستغرق دقائق معدودة ، ينصرف بعدها مباشرة ، دون أن يلقى نظرة واحدة على الآخرين ..

وفى ذلك اليوم التزم الصمت والسكون كعادته ، وهو يحصى الدقائق ، حتى يحين دوره ، وتنتهى تلك الجلسة ، كما انتهت عشرات قبلها ..

وفجأة ، دخلت هى ..

صورة مجسمة للرقة والحزن تمشى على قدمين ..

فتاة لها وجه ملائكى رقيق ، وعينان يظلّ منهما حزن الدنيا كلها ، عبرت باب قاعة الانتظار ، فى ثوب وردى أنيق ، يشفّ عن الذوق ورقة الحال ، وحذاء قديم ، لم يفقد كل رونقه بعد ، وإن بدا شديد الرقة فى قدميها الصغيرتين ..

وفجأة أيضًا ، اعتدل (نجيب) فى مقعده ..

وتطلّع إليها ..

لم يكن قد رأى ، فى حياته كلها ـ أو هكذا خُيل إليه ـ فتاة تفوقها رقة وأنوثة ..

وفى حياء يمتزج بالحزن والخنوع ، عبرت الفتاة قاعة الانتظار ، ثم اتخذت المقعد الذى يواجهه مباشرة ، عبر القاعة ، وجلست فوقه فى رقة مدهشة ، وأسبلت جفنيها فى حزن ، وهى تتطلّع إلى الأرض ، بين قدميها مباشرة ، وتضمّ كفيها الرقيقتين فوق ركبتيها .

وقفزت إلى ذهنه عشرات التساؤلات ..

من هذا الملاك الرقيق ؟ ..

ما الذى أتى بها إلى هنا ؟ ..

وكيف لم يرها من قبل ؟ ..

وعيناها ..

عيناها اللتان رأى فيهما كل جمال الدنيا ..

وكل حزنها ..

كيف لم يرهما من قبل ؟! ..

كيف ؟!

وفى لهفة حقيقية ، التفت إلى جاره ، وسأله فى همس :

ـ من هذه الفتاة ؟!

اعتدل جاره فى دهشة ، وتطلّع إليه فى حيرة ، غير مصدّق ..

إذن فقد تكلّم (نجيب) أخيرًا ..

تكلّم الصامت السكن ..

وألقى سؤالًا ..

تهلّلت أسارير الرجل ، وكأنما يسعده أن خصّه (نجيب) بهذا التحوّل الجديد ، وأجابه فى سرعة :

ـ لم أرها من قبل .. يبدو أنها وجه جديد .

وجه جديد ؟! ..

بدا المصطلح فجًا بالنسبة لـ (نجيب) ..

إنه مصطلح يصلح لنجمة سينمائية أو تليفزيونية جديدة ، وليس لفتاة تلج هذه القاعة لأوّل مرة ، أو ..

أو لمريضة جديدة ..

لم يدر لماذا شعر بكل الذعر والجزع ، عندما وضع عقله تلك العبارة الأخيرة ! .

مريضة جديدة ! ..

أيمكن هذا ؟! .

أيمكن أن يكون ذلك الملاك الرقيق مجرّد إضافة جديدة ، لعالم المرض والألم والعذاب ؟! ..

لا .. مستحيل ! ..

لم يكد عقله ينطق الكلمة ، حتى استدرك متراجعًا ..

ولماذا مستحيل ! ..

المرض مثل الموت ، لا يملك جواز سفر أو هوية ..

لا فارق عندهما بين الثرى والفقير ، والطيب والشرير ، والجميل والقبيح ..

إنها هنا ، وهذا وحده دليل المرض ..

وعيناها ..

عيناها اللتان تحملان حزن الدنيا كلها ، لا تعنيان سوى هذا ..
سوى المرض والعذاب ..
وانفطر قلبه بين ضلوعه ..
قلبه الذى لم يخفق لمرضه ، خفق لمرضها..
لم يبك قلبه من أجله ، وانفطر من أجلها ..
ولثوان ، نسى حتى أنه أيضًا مريض ، يجلس فى انتظار جلسة علاجية ، لم تؤت ثمارها حتى الآن ..
كاد ينسى هذا تمامًا ، لولا أن ارتفع صوت فنى القسم ، وهو ينادى اسمه ..
عندئذ استعاد إحساسه بالموقف ، ونهض دون أن يرفع عينيه عنها ، واتجه إلى حجرة العلاج الأولى ..
وأمام باب الحجرة ، تردد لحظات فى الدخول ..
كانت هناك حجرتان أخريان ، وربما يحين دورها ، قبل أن ينتهى هو من جلسته ، فلا يراها عند خروجه ..
ولكن فنى القسم قال فى ضجر :
ـ هيا يا أستاذ (نجيب) .. إنه دورك ، والباقون ينتظرون ..
ولم يكن أمامه سوى الدخول ..
وفى لهفة ، ألقى عليها نظرة أخيرة ، ثم دلف إلى حجرة العلاج الإشعاعى ، وأسلم نفسه للفنيين والأطباء ، الذين أرقدوه على منضدة العلاج ، ووضعوا ذلك الجهاز الكبير فوقه ، وطلبوا منه إغلاق عينيه ..
ثم بدأت جلسة العلاج كالمعتاد ..

وفى هذه المرة ، بدت له الجلسة طويلة للغاية ..
بدت له وكأنها تستغرق دهرًا كاملًا ..
وطوال الجلسة ، لم يفكرْ فى سواها ..
كانت صورتها وحدها تملأ ذهنه ، وتطغى على كل حواسه ومشاعرى ..
صورتها وحدها تحتل كيانه كله ..
ومع طول الجلسة ، راح يسأل نفسه : ما الذى جذبه إليها إلى هذا الحد ؟ ..
ما الذى أيقظ فى أعماقه كل تلك المشاعر ، التى تصوّر أنه دفنها فى صدره منذ علم بمرضه ؟ ..
ومع كل سؤال ، كانت الصورة فى ذهنه تقترب أكثر ، حتى لم يعد يملؤها سوى عيناها ..
فقط عيناها ..
وفى ارتياح عجيب ، راح يستعيد صورتها مرة أخرى ، على الرغم من حزنها وصمتها ، و ..
« يمكنك أن تفتح عينيك يا أستاذ (نجيب) .. لقد انتهت الجلسة » ..
نطق الطبيب بهذه العبارة ، والتقط نفسًا عميقًا ، واستعد لإجابة سيل الأسئلة ، الذى يلقيه (نجيب) عادة على مسمعه ، فور انتهاء الجلسة العلاجية ، إلا أن الدهشة لم تلبث أن ملأت كيانه ، عندما هبط (نجيب) عن منضدة العلاج ، وأسرع يرتدى ثيابه ، وهو يقول :
ـ شكرًا يا دكتور .. أشكرك كثيرًا ..

تابعه الطبيب ببصره فى دهشة ، وهو يغادر الحجرة ، ثم هزَّ رأسه فى حيرة ، قبل أن يقول فى آلية :

ـ التـالى ..

أما (نجيب) ، فقد أسرع إلى قاعة الانتظار ، وتطلَّع فى لهفة إلى المقعد ، الذى كانت تجلس عليه هى ..

ثم امتلأت نفسه بخيبة الأمل ..

لقد كان المقعد خاليًا ، فارغًا ..

ولم تكن هى فى قاعة الانتظار ..

والثوان ، تردَّدَ فى مكانه ، وهو يتطلَّع إلى المقعد الفارغ ..

كان واثقًا من أنها تتلقَّى الآن جلسة علاجية ، فى حجرة أخرى ، وأنه يستطيع انتظارها ، و ..

ولكنه شعر بالخجل ..

لن يكون من الطبيعى أن يبقى وينتظر ، بعد أن انتهى من جلسته ..

إنه لم يفعل هذا قط من قبل ..

وفى أسف ، راح يجرّ قدميه جرًا ، مغادرًا المكان ، وقلبه يخفق فى أسى ..

ويا للعجب ! ..

لأوَّل مرة فى حياته يشعر بالأسف والأسى ؛ لأنه سيغادر هذا المكان ..

ولأوَّل مرة يشعر باللهفة للعودة إليه مرة أخرى ..

كل هذا من أجل عينيها ..

فقط عينيها ..

وعندما غادر المستشفى كله ، واستقلّ سيارته الصغيرة ، عائدًا إلى منزله ، كان يشعر وكأنه قد ترك قلبه كله خلفه ، وصار مجرَّد كيان بشرى جاف ..

بلا قلب ..

★ ★ ★

٢ ـ خفقات قلب ..

لم يكد (نجيب) يدلف إلى شقته ، حتى رفعت أمه عينيها إليه ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة حانية عطوف ، وهو يقول :

ـ مساء الخير يا أمى .. هل قضيت يومًا طيبًا ؟

كانت عبارة تقليدية ، يلقيها على أمه كل مساء ، عند عودته من عمله ، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة مرحة زائفة ، فى محاولة لإخفاء ما يعانيه عنها ..

لم يخبرها قط بمرضه ..

لم يغير حتى نمط تعامله معها ، وهو يتلقى جلسات العلاج ..

ومن حسن حظه أن عمله كان يقتضى منه عادة الغياب عن المنزل طيلة النهار ، والعودة إليه فى المساء ، مما ساعده على تلقى جلسات العلاج ، دون أن تشعر أمه ..

حتى عندما انفصل عن خطيبته (مها) ، لم تعرف أمه السبب ..

كل ما أخبرها به هو أنهما اختلفا معًا ـ هو و (مها) ـ فانفصلا ..

لم يخبرها أنه صارح (مها) بطبيعة مرضه ، وطلب منها كتمان الأمر ، وأخبرها بعزمه على فسخ خطبته لها ..

ولم تعترض (مها) ..

لم تحاول حتى أن تجامله ، عندما علمت بالأمر ..

لقد وافقت على فسخ الخطبة على الفور ، وأعلنته أن هذا لصالحهما معًا ..

ويومها شعر بطعنة قوية فى قلبه ..

طعنة نجلاء ..

صحيح أنه كان أكثر إصرارًا منها على فسخ خطبتهما ؛ لأنه يرفض أن يظلمها بمرضه ، أو يرهقها إلى جواره ، فى رحلة علاج طويلة بلا أمل ، إلا أن الطريقة التى استقبلت بها الخبر ، والتى سارعت فيها بقطع علاقتهما ، أورثته شعورًا بالألم والمرارة ، لم يفارقه لفترة طويلة ..

وعندما خلع من إصبعه دبلة الخطبة ، تصوَّر أنه يخلع معها كل مشاعره وأحاسيسه ، وأن قلبه لن يخفق مرة أخرى أبدًا ..

لم يعد من حقه حتى أن يخفق ..

ولكنه خفق اليوم ..

تمرَّد على قراره ، وخفق فى قوة ، أمام عينين لم ير مثيلًا لهما فى عمره كله ..

أمام فتاة لا يعرف حتى اسمها أو ظروفها ..

فتاة تمتلك وجهًا ملائكيًا ، وعينين لا مثيل لهما ..

وعندما ألقى على أمه تلك العبارة التقليدية ، بعد ساعات من خفقان قلبه ، كان يتصوَّر أنه يلقيها بأسلوبه المعتاد ، إلا أن أمه تطلَّعت إليه فى حنان زائد ، وتألَّقت عيناها ببريق لم يره فيهما منذ زمن طويل ، وتهدَّج صوتها فى سعادة ، وهى تقول :

ـ مساء الخير يا بنى .. كم تسعدنى رؤيتك الليلة ؟

انحنى يطبع قبلة على وجنتها كعادته ، وهو يبتسم قائلًا :

ـ ولماذا الليلة بالذات ؟

تطلَّعت إلى عينيه مباشرة ، وربَّتت على يده الممسكة بوجنتها ،

وهى تقول فى خفوت حنون :

ـ لأن سعادتك الليلة حقيقية ..

تراجع فى حركة حادة ، وتطلّع إليها فى دهشة ..

ما الذى تعنيه بعبارتها ؟! ..

ماذا تقصد بأن سعادته الليلة حقيقية ؟!

هل يشعر قلبها بشىء ما ؟ ..

سألها بصوت مختنق حذر :

ـ ما معنى هذا ؟

أطلّت من عينيها نظرة بالغة الرفق والحنان ، وهى تقول :

ـ لا شىء يابنى .. مجرّد عبارة .

ثم نهضت مستطرة :

ـ هل أعدّ لك طعام الغداء ؟

ألقى جسده على أقرب مقعد إليه ، وهو يهتف :

ـ بالطبع .. أكاد أموت جوعًا .

تهلّلت أساريرها ، وهى تتطلّع إليه فى سعادة ، قبل أن تقول :

ـ لحظات وتتناول طعامك .

كانت أوّل مرة منذ فترة طويلة ، يُقبل فيها على تناول الطعام ، ولكنه كان يشعر أن شهيته مفتوحة بالفعل هذا المساء .

لقد تغيّر فى أعماقه شىء ما ، منذ وقعت عيناه عليها ..

على وجهها الملائكى ..

على عينيها ..

فجأة عاد إليه إحساسه بالحياة ..

وبالجمال ..

و ... بالحب ..

انتفض جسده ، مع ذلك الخاطر الأخير ، وسرت فيه قشعريرة عجيبة ، جعلته يبتسم ، ويسبل عينيه فى تراخ ..

هل استيقظ الحب حقًا فى أعماقه ؟! ..

استعاد ذهنه للمرة الألف صورتها وملامحها ، وهو يبتسم ..

كيف يشعر بكل هذا ، من مجرّد لقاء عادى بسيط ؟ .

لقاء لم يستغرق دقائق معدودة ..

إنه لا يؤمن ، ولم يؤمن أبدًا بالحب من أوّل نظرة ..

ماذا أصابه إذن ؟ ..

أهو مجرّد انجذاب عادى ؟ ..

كلّا .. من المؤكّد أن ما حدث ليس عاديًا ، فلم يسبق له أن شعر أبدًا بمثل هذه المشاعر ، والتى اجتاحت كيانه كله فى لحظة واحدة ..

لم يسبق له أبدًا أن مرّ بتجربة كهذه ..

حتى أيام خطبته لـ (مها) ..

وأيام حبه لها ..

قطع أفكاره ، عندما شعر بلمسة حانية على وجهه ، ففتح عينيه ، ورأى أمه تنحنى فوقه ، وهى تبتسم ابتسامة رائعة ، وتهمس :

ـ (نجيب) .. إننى لم أر تلك الابتسامة على شفيتك ، منذ زمن طويل .

اعتدل قائلًا :

ـ حقًا ؟
تأملته فى لهفة وحنان ، ثم سألته :
ـ قل لى يا ولدى : هل ..
بترت سؤالها بغتة ، وبدا مزيج من الحيرة والتوتر والتردد على وجهها ، فسألها هو فى اهتمام :
ـ هل ماذا ؟
تطلعت إليه لحظة أخرى بنفس التردد ، ثم ابتسمت قائلة :
ـ لقد نسيت .. إنها الشيخوخة ولا شك .
ضحك قائلًا :
ـ الشيخوخة ؟! .. أى مخادع قال هذا .
تناولا الطعام معًا ، وهو يداعبها فى مرح حنون ، وهى تتطلع إليه فى سعادة جمة ، واستمرا يتبادلان الحديث طويلًا ، بعد تناول الطعام ، ثم أوت هى إلى فراشها ، وقلبها يختلج فى سعادة ، فى حين ألقى هو جسده على فراشه ، وأطلق العنان مرة أخرى لأفكاره ..
ترى من هى ؟ ..
ما اسمها ؟ ..
ما عملها ؟ ..
أين تسكن ؟ ..
عشرات الأسئلة راحت تجوس بعقله وخاطره ، حتى أحاطه النوم بأناسله الرقيقة ، فأسبل جفنيه ، واستسلم له فى ارتياح ..
وفى هذه الليلة بالذات ، ولأول مرة منذ فترة طويلة ، كانت

أحلامه وردية ناعمة رقيقة ، تمامًا كلون ثوبها وشفتيها ، حتى استيقظ فى اليوم التالى سعيدًا نشيطًا ، واستقبل أمه بابتسامة واسعة ، وهو يقول :
ـ صباح الخير يا أجمل أم فى الدنيا ..
تطلعت إليه أمه فى دهشة ، قبل أن تجيب فى سعادة :
ـ صباح الخير يا (نجيب) .. هل أعدّ لك طعام الإفطار ؟
هتف :
ـ بالطبع .
اغتسل بسرعة ، وارتدى ثيابه ، ثم انضم إليها حول مائدة الإفطار ، وتناول إفطاره بشهية حقيقية ، وأمه تتطلع إليه صامتة ، حتى سألها مبتسمًا :
ـ ماذا بك يا أماه .. ألن تشاركيننى طعام الإفطار ؟
تطلعت إليه لحظات صامتة ، ثم سألته فجأة :
ـ هل من جديد ؟
توقف عن تناول طعامه ، وسألها :
ـ بشأن ماذا ؟
ترددت لحظة أخرى ، ثم لم تلبث أن حسمت أمرها ، وقالت فى عصبية :
ـ أعنى هل أخبرك الطبيب بجديد ؟
هوى عليه السؤال كالصاعقة ، وحدق فى وجهها لحظة بذهول ، وغصّ حلقه بالطعام ، فسعل فى قوة ، وأسرعت هى تناوله قدح ماء ، ارتشف منه قليلًا ، وابتلع غصته ، ثم سألها بصوت مختنق :

ـ أى طبيب ؟

كان من الواضح أنها لم تعد قادرة على الاستمرار ، فى لعبة اللف والدوران هذه ، فقد فركت كفيها فى عصبية ، وقالت :

ـ إنك مختلف منذ مساء أمس .. كنت دائمًا تفتعل المرح والابتسام ، عند عودتك إلى المنزل ، ولكنك أمس كنت تبتسم وتمرح بصورة طبيعية ، وحتى ابتسامتك ، كانت تحمل الكثير من الارتياح والسعادة .. فهل أخبرك الطبيب بجديد ؟

قال مرتبكًا :

ـ لست أدرى عم تتحدثين ، وأى طبيب هذا ؟

صاحت وعيناها تترقرقان بالدموع :

ـ أتتصوَّر أننى لا أعرف ؟ .. أتظن أنه من الممكن أن تخدع قلب أم ؟

هب واقفًا ، وشحب وجهه ، وهو يقول :

ـ أماه ! .. ماذا تعنين ؟

انفجرت باكية بغتة ، وهى تهتف :

ـ أعنى أننى أعرف كل شىء .. أعرف أنك مريض .. أعرف كل شىء .

وانهارت باكية فى حرارة ، فى حين تجمدت مشاعره هو ..

إذن فهى تعرف ..

تعرف كل شىء ..

وفى بطء ، عاد يستقرّ على مقعده ، دون أن يحاول منعها من البكاء ، وصمت طويلًا ، وهى تذرف الدمع السخين ، قبل أن يتمتم :

ـ منذ متى تعرفين ؟

جففت دموعها ، وهى تقول :

ـ منذ البداية تقريبًا .

ردَّد مبهوتًا :

ـ منذ البداية ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :

ـ نعم .. بعد أن فسخت خطبتك لـ (مها) ، وحاولت إقناعك بالعودة إليها ، ولكنك أبيت بشدة ، وتصوَّرت أنا أنها ترفض العودة إليك ، فذهبت لمقابلتها ، عسى أن أقنعها بإعادة خطبتكما ، فأخبرتنى بالحقيقة كلها ..

تمتم فى مرارة :

ـ يا للحقيرة !

تابعت أمه ، وكأنها لم تسمع تعليقه :

ـ يومها بكيت كما لم أبك من قبل ، ولكننى قررت ألا أخبرك بما علمت ، أن أترك لك أنت حق إبلاغى بالأمر ، عندما ترى الوقت مناسبًا لذلك ، ولست أدرى لماذا ... لماذا ..

انخرطت مرة أخرى بالبكاء ، فقفز من مقعده إليها ، وربَّت على رأسها فى حنان ، وهو يقول :

ـ ولكننى لم أفقد الأمل أبدًا ، ولا أريد أن تفقديه .

رفعت عينيها الدامعتين إليه ، وقالت :

ـ أنا لا أفقد الأمل أبدًا ، فى رحمة الله (سبحانه وتعالى) .

ابتسم فى وجهها ، متمتمًا :

ـ هذا أعظم ما فيك .

ثم عاد يربّت على رأسها ، مستطردًا :

ـ إذن فقد تصوَّرت أن سعادتى أمس ، تعنى أنهم وجدوا علاجًا لحالتى .

سألته فى لهفة :

ـ أليس الأمر كذلك ؟

هزّ رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يقول :

ـ كلّا .. ليس كذلك .

خفق قلبها فى عنف ، وهى تسأله :

ـ ماذا إذن ؟

اعتدل وتنهَّد فى عمق ، وغمغم :

ـ سأخبرك بكل شىء ..

وعاد إلى مقعده ، وراح يقص عليها كل شىء ..

كل شىء ..

★ ★ ★

٣ ـ اللقـــاء ..

عبر (نجيب) ممر المستشفى فى خطوات سريعة ، على عكس ما كان يفعل فيما مضى ، ودلف إلى قاعة الانتظار ، وهو يدير عينيه فيها بلهفة ، ثم لم يلبث أن توقَّف فى توتر ، واتجه إلى مقعده ، وجلس صامتًا ، يراقب مقعدها الخالى فى ضيق ، حتى مال عليه جاره ، وهمس :

ـ إنها لم تحضر بعد .

التفت إليه (نجيب) فى دهشة ، ورأى تلك الابتسامة الخبيثة على شفتيه ، فقال فى حدة :

ـ ماذا تقصد ؟

أشار الرجل بذقنه إلى المقعد الخالى عبر القاعة ، وهمس :

ـ صاحبة المقعد .. ذات الثوب الوردى .

انعقد حاجبا (نجيب) ، وهو يقول :

ـ وما شأنى أنا ؟

أجابه الرجل ، وهو يبتسم نفس الابتسامة الخبيثة :

ـ إنك لم ترفع عينيك عنها ، طوال الجلسات الثلاث الماضية ، وكلنا لاحظنا هذا .

لم يعترض (نجيب) ..

لم يحاول حتى الاعتراض ..

كل ما فعله هو أن أشاح بوجهه عن جاره ، وهو يعاود التطلّع إلى المقعد الخالى ..

لقد تأخرت هذه المرة ..
لم تصل قبله كالمعتاد ..
فى المرات الثلاث السابقة ، كان يصل ليجدها جالسة على مقعدها ، فى ثوبها الوردى ، وعينيها الجميلتين الحزينتين ، وكفاها فوق ركبتيها ، وهى تتطلع إليهما فى صمت حزين ..
وفى المرات الثلاث السابقة ، لم يتبادل معها كلمة واحدة ..
لم يجرؤ حتى أن يفعل ..
كان يكتفى بالتطلع إليها فى صمت تام ، وقلبه يخفق فى عنف ، حتى يحين موعد جلسته العلاجية ، التى تنتهى مع بداية جلستها ، فينصرف وكله لهفة فى البقاء أكثر وأكثر ، وفى انتظارها حتى تعود ..
لم يكن يعرف حتى اسمها ..
كل ما علمه عنها هو أنها رقيقة الحال ، كما هى رقيقة المشاعر ..
ثوبها وحذاؤها ، واللذان لا يتبدلان أبدًا ، كان دليله على هذا ..
صحيح أنها تحافظ دائمًا على نظافتهما وأناقتهما ـ بقدر المستطاع ـ إلا أنها لم تنجح أبدًا فى حجب رخصهما وقدمهما ..
ثم أنها كانت تأتى وحدها دائمًا ..
وهذا غريب ..
كل الفتيات والنساء ، واللاتى يتلقين علاجًا فى هذا القسم ، كنّ يحضرن عادة ودائمًا برفقة ذويهن ، أو صديقاتهن ، أو حتى جارتهن ..

إلا هى ..
لم يحضر أحد أبدًا بصحبتها ..
ولكن الأكثر غرابة هو قدرتها على تلقى مثل هذا النوع من العلاج الباهظ الثمن ! ..
شكلها لا يوحى أبدًا بقدرتها على هذا ..
وكانت هذه نقطة جديدة ، تضاف إلى كل ما يحيط بها من غموض ..
وكل ما يملأ نفسه تجاهها من لهفة وفضول ..
وفجأة خفق قلبه فى عنف ..
لقد وصلت ..
وصلت بنفس الثوب الوردى ، ونفس العينين الحزينتين ..
وعندما اتخذت مقعدها المعتاد ، همس جاره :
ـ ها هى ذى ..
لم يأبه به (نجيب) هذه المرة ، وتركه يتحدث ويهمس ، دون أن يستمع إليه ..
كانت هى تجذب انتباهه فى شدة اليوم ..
كانت عيناها أكثر حزنًا ..
وأكثر بؤسًا ومرارة ..
إنها تبدو كما لو أن حزن الدنيا فى عينيها قد تضاعف بغتة ..
وتمنى لحظتها لو ينتقل إلى جوارها ، ويسألها عما أصابها ..
تمنى لو يحتويها بين ذراعيه ، ويتركها لتفرغ دموع حزنها على كتفيه ..

أما هى ، فلم تشعر بنظراته هذه المرة ..

كانت قد انتبهت . فى المرتين السابقتين ، إلى أنه يتأملها طوال الوقت ، فشعرت بالخجل ، وأشاحت بوجهها عنه فى المرة الأولى ، ثم اختلست النظر إليه فى المرة الثانية ..

كان نحيلًا ، خفيف الشعر فى مقدمة الرأس ، ولكنه لم يخل من وسامة معقولة ، وأناقة بسيطة محبَّبة ..

ولم تدر لماذا شعرت بميل إليه ؟ ..

لم تكن الظروف أو الملابسات لتسمح بشعورها بالميل ، تجاه أى كائن كان ..

إنها هنا لتتلقى جلسات علاج إشعاعى ، لمرض أخبرها طبيبها ـ بكل صراحة ـ بأنه ما من علاج حاسم أو معروف له ، حتى هذا الوقت ..

وكانت تتشبَّث بالأمل ..

ولكن نظراته إليها أربكتها ..

وكأنثى ، قرأت فى ملامحه وعينيه الكثير ..

قرأت إعجابه بها ، واهتمامه ومشاعره تجاهها ..

وشعرت بالارتياح ..

حتى فى مثل ظروفها وموقفها ، لم تتوقف أبدًا مشاعرها كأنثى ..

ثم عاودها الشعور بالقلق والخجل ، وقررَّت أن تلقى كل هذه المشاعر خلف ظهرها ..

وفى ذلك اليوم بالذات ، كانت متاعبها أكثر من أن تستبقى مكانًا لمشاعرها ..

ولقد شعر هو بهذا ..

شعر به ، ووجد نفسه ينهض من مقعده ، على الرغم منه ، ويتجه إليها ، ثم يتخذ المقعد المجاور لها ، ويقول فى خفوت :

ـ صباح الخير ..

رفعت عينيها إليه فى جيرة ، وهى تسأل نفسها عن سر إقدامه على هذه الخطوة ، التى لم يقدم على مثلها من قبل ..

ولأوَّل مرة ، التقت عيونهمًا مباشرة ..

واختلج قلباهما فى آن واحد ..

ولثوان لم ينبس أحدهما ببنت شفة ..

لقد تفجَّر فى أعماق كل منهما شىء ما ، لم يكن قد أفصح عن نفسه فى وضوح ، حتى هذه اللحظة ..

شىء جعل قلبيهما يخفقان فى عنف ، وكاد يدفع لسانيهما للاعتراف بعاطفة لم تنضج بعد ، لولا أن ارتفع فجأة صوت فنى الأشعة ، وهو يقول :

ـ دورك يا أستاذ (نجيب) .

انتفض (نجيب) ، عندما سمع اسمه ، واستيقظ من حالة الهيام والوله ، التى سيطرت عليه ، وسألها بسرعة :

ـ ما اسمك ؟

انتابتها موجة من الخجل والحياء ، فتضرَّج وجهها بشدة ، واحتبست الكلمات فى حلقها ، وغضَّت بصرها عنه ، والفنى يكرِّر فى ضجر :

ـ دورك يا أستاذ (نجيب) .. الجهاز يعمل ، وهناك آخرون ينتظرون .

سألها مرة أخرى فى لهفة :

ـ ما اسمك ؟

حاولت أن تجيب ، إلا أن الحروف أبت أن تفارق شفتيها ، فاكتفت بابتسامة خجلى ، وهى تتطلّع إليه بنصف عينيها ، ووجهها يزداد تضرّجًا ، فنهض ليبدأ جلسته العلاجية ، وهو يقول لها فى لهفة :

ـ فليكن .. سنلتقى بعد انتهاء جلستك .. لا تنصرفى مباشرة .. انتظرينى .

ارتسمت على وجوه الآخرين ابتسامة تجمع ما بين الخبث والجذل ، وهو يدخل إلى حجرة العلاج ، والباب يُغلق خلفه ، ثم انتقلت عيونهم إليها ، فازداد وجهها تضرّجًا ، وتضاعف الخجل فى أعماقها ..

ماذا أصابها ؟ ..

كيف تركت العنان لعواطفها هكذا ؟ .

هل نسيت لماذا هى هنا ؟ ..

هل نسيت كيف تواصل علاجها ، وكيف تدفع نفقاته الباهظة ؟!

وترقرقت عيناها بالدموع لحظات ، ثم لم تلبث تلك الدموع أن هزمت حاجز المقاومة ، وانهمرت على وجنتيها ساخنة غزيرة ..

ولدقائق راح الجميع يراقبونها فى صمت ، ثم نهضت امرأة من مقعدها ، وجلست إلى جوارها ، وربّتت على كتفها فى حنان ، وهى تسألها :

ـ ماذا هناك يا بنيتى ؟

انتفضت فى شدة ، حتى أن المرأة أبعدت يدها عنها بحركة سريعة ، وهى تتمتم :

ـ معذرة .. لم أقصد أن ..

ولكن الفتاة هبّت واقفة ، وتفجّر الدمع من عينيها أكثر غزارة ، ثم اندفعت فجأة تغادر المكان ، والمرأة تهتف خلفها :

ـ ماذا حـدث ؟

تردّد هتافها فى القاعة ، وبدا وكأنها قد شقّت به حاجز الصمت المخيّم عليها ، فتراجعت فى مقعدها ، وتبادلت مع الآخرين نظرة طويلة ، ثم لم تلبث أن هزّت كتفيها ، ولاذت بالصمت بدورها ، وشاركها الجميع صمتها ، وعيونهم تحمل عشرات التساؤلات ، التى لم تفصح عنها ألسنتهم قط ، حتى انتهى (نجيب) من جلسته ، وخرج يبحث بعينيه عن ذات الرداء الوردى ، فغمغمت المرأة :

ـ لقد انصرفت .

تطلّع إليها فى دهشة ، وقال :

ـ انصرفت ؟! .. وماذا عن جلستها العلاجية ؟

أومأت المرأة برأسها ، وقالت :

ـ لم تتلق علاجها هذه المرة .

توقّف لحظات مبهوتًا ، والدهشة تملأ كيانه ، وتعربد فى أعماقه ..

لماذا انصرفت ؟ ..

لماذا لم تتلق جلستها العلاجية ؟ ..

ثم فجأة ، امتزجت دهشته بالجزع ..

تُرى أهو المسئول عن هذا ؟! ..

هل انصرفت بسبب محاولته التقرّب إليها ؟ ..
وهوى قلبه بين قدميه ..
لو أنه المسئول بالفعل ، فلن يغفر لنفسه ..
لن يغفر لها أبدًا ..

★ ★ ★

٤ ـ الهـــاربة ..

«لا .. لا أعتقد هذا» ..

تطلّع (نجيب) فى لهفة إلى أمه ، التى نطقت هذه العبارة ، بعد أن استمعت منه إلى القصة كلها ، وسألها :

ـ حقًا ! .. أتظنين أنها بالفعل لم تتصرف ، بسبب تقرّبى إليها ..

قالت فى حسم :

ـ بل أنا واثقة من هذا .

تطلّع إليها متسائلًا ، فتابعت :

ـ لو أنها ترفض تقرّبك إليها ، لاكتفت بتجاهلك ، والإشاحة عنك بوجهها ، أو لأبلغت أمن المستشفى ، لو تصوّرت أنك تتمادى فى هـذا ، ولكنها لن تتصرف ، وتتنازل عن جلسة علاجية بالغـة الأهمية ، لمجرّد أن شابًا حاول التقرّب إليها .

أومأ برأسه موافقًا ومتفهمًا ، وهو يقول :

ـ لقد طرقت أمرًا يثير دهشتى بشدة يا أمى .. فهذه الفتاة رقيقة الحال .. بل يمكن القول بأنها فقيرة ، فكيف يمكنها أن تحتمل نفقات هذا العلاج .. أنت تعلمين أننى أعمل فى شركة كبرى ، وبمرتب ضخم ، ولدى ميراث جيـد من والدى (رحمه الله) ، ولكن ماذا تفعل هى ؟

انحنت أمه نحوه ، وقالت :

ـ هذا ما ينبغى عليك البحث عنه .

تطلّع إليها فى دهشة ، بل قبل أن يقول :

ـ البحث عنه ؟! .. أيعنى هذا أنك لا تعترضين على علاقتى بها ؟
اغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تقول :
ـ وهل يمكننى أن أقف فى طريق سعادتك ؟
انحنى يطبع قبلة على وجنتها ، قائلًا :
ـ هكذا أنت دائمًا يا أمى .. عظيمة حنون .
قاومت تأثرها ، وهى تتحسّس شعره ، مغمغمة :
ـ أنت أيضًا عظيم وحنون يا ولدى .
ثم أبعدت وجهها عنه ، وسألته ، وهى تتطلّع إليه مباشرة :
ـ قل لى : ألم يخطر ببالك أن يكون سبب انصرافها مادى ؟
عقد حاجبيه ، وهو يهتف :
ـ مادى ؟!
أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :
ـ نعم .. لقد أخبرتنى أن مظهرها يؤكّد فقرها ، فلماذا لا تكون قد انصرفت ، لمجرّد أنها لا تمتلك تكاليف الجلسة .
اتسعت عيناه فى ارتياع ، وقال :
ـ ولكن هذه الجلسات حتمية ، بدونها تسوء حالتها ، و ..
لم يستطع إتمام عبارته ، فاتسعت عيناه فى هلع ، وتابع فى لهفة :
ـ أماه .. لو أن الأمر كذلك ، فلابد لى من العثور عليها .. إننى أمتلك ما يكفى لجلساتنا معًا .
اغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تقول :
ـ ابحث عنها يا ولدى .. ابحث عنها .

ولقد نفّذ (نجيب) نصيحة أمه بالضبط ..
فى الأسبوع التالى ذهب إلى موعد جلسته مبكّرًا ، وتطلّع طوال الوقت إلى مقعدها الفارغ ، حتى مال جاره على أذنه ، وقال :
ـ لقد ذهبت .
التفت إليه (نجيب) ، وسأله فى لهفة :
ـ ماذا تعنى ؟
أجابه الرجل فى خفوت :
ـ ذهبت إلى الأبد .
انتفض جسد (نجيب) فى قوة ، وصاح فى هلع وارتياع :
ـ ماتت ؟!
تراجع الرجل فى انزعاج ، ولوّح بكفيه ، قائلًا :
ـ كلّا .. كلّا .. أنا لم أقل هذا .. كل ما قلته هو أنها قد ذهبت .. غادرت المستشفى ، ولن تعود مرة أخرى .. لقد ألغت كل جلساتها العلاجية القادمة ..
حدّق (نجيب) فى وجهه لحظة ، ثم هبّ من مقعده ، واندفع بسرعة أقرب إلى الركض ، عبر ممر المستشفى ، حتى مكتب استعلامات قسم الأشعة العلاجية ، وسأل الموظفة هناك :
ـ هل ألغت جلساتها حقًا ؟
رفعت عينيها إليه فى دهشة ، وقالت :
ـ من هى ؟!
ارتبك وهو يتطلّع إليها ..
إنه لا يعرف اسمها ..

لم يجد الوقت لمعرفته ..
ولكنه سأل الموظفة فى عصبية :
ـ هناك فتاة ألغت جلساتها العلاجية القادمة .. أريد معرفة اسمها وعنوانها .
أجابته الموظفة فى صرامة :
ـ ليس هذا من حقك .
كان يشعر بثورة عارمة فى أعماقه ، ولكنه قال :
ـ أرجوك .. أريد معرفة اسمها وعنوانها .
قالت بنفس الصرامة :
ـ هذه المعلومات سرية ، وليس من حقى حتى إطلاعك عليها .
لم تكد تنهى عبارتها ، حتى شعرت بالندم لصرامتها ، وتطلّعت فى إشفاق إلى تلك الدموع ، التى ترقرقت فى عينيه ، وهو يقول فى لهجة أقرب إلى الضراعة :
ـ أرجوك .
تلاشت صرامتها ، وانخفض صوتها ، وهى تقول :
ـ أهى مسألة عاطفية ؟
أومأ برأسه إيجابًا ، واحتبست الكلمات فى حلقه ، فلم يستطع الكلام ، وتهدّج صوتها هى ، وتسأله :
ـ هل تحبها ؟
عاد يومئ برأسه إيجابًا ، والتمعت عيناه أكثر بدموعه الحبيسة ، فأسرعت الموظفة تلتقط السجلات ، وقد غلبها التأثر ، وقالت :
ـ اسمها (إيناس حسن) .. وهى تقيم فى (بولاق) حاليًا .

سألها بسرعة ولهفة :
ـ ماذا تعنين بكلمة (حاليًا) ؟
أجابته فى تعاطف :
ـ العنوان فى بطاقتها هو (الإسكندرية) .. أيهما تريد .. عنوانها هنا أم هناك ؟
احتبس صوته واختنق ، وهو يقول :
ـ أريد العنوانين .
أسرعت تنقل اسمها وعنوانيها إلى ورقة بيضاء ، ناولته إياها ، وهى تسأله :
ـ ولكن كيف تحب فتاة تجهل اسمها وعنوانها ؟
تطلّع إلى عينيها ، وهو يقول فى خفوت :
ـ لست أدرى .. صدقينى .. لست أدرى .
وتركها منصرفًا ، فتابعته ببصرها ، وعيناها تحملان نظرة متعاطفة ، قبل أن تنطلق من صدرها زفرة حارة قوية ، وهى تقول :
ـ يا لها من فتاة محظوظة .
أما (نجيب) ، فقد نسى جلسته العلاجية ، وموعدها ، وفوائدها ، ونتائجها ..
نسى حتى من هو ..
كل ما تذكره هو أنه يبحث عن ملاك رقيق ، له أجمل عينين فى الدنيا ..
ملاك اسمه (إيناس) ..

وبكل الحماس واللهفة ، قفز إلى سيارته ، وانطلق بها ، فى طريقه إلى حى (بولاق) ..

ولم يدر لماذا طال الطريق إلى هذا الحد ؟ ..

لماذا استغرق كل هذا الوقت ، قبل أن يصل إلى (بولاق) ؟ ..

وحتى بعد أن وصل ، لم يكن العثور على العنوان عسيرًا ، فهو فى أحد الشوارع الرئيسية الكبرى ، ولكنه شعر وكأن دهرًا قد انقضى ، قبل أن يصل إلى العنوان ، ويصعد إلى الطابق الثالث ، ثم يطرق باب الشقة رقم ستة ..

ومضت لحظات من الصمت ، قبل أن تفتح الباب امرأة شابة ، بدت له شديدة الشبه بـ (إيناس) ، وتطلّعت إليه فى تساؤل ، فالتقط نفسًا عميقًا ، ليستجمع شجاعته ، قبل أن يقول :

ـ مساء الخير .

تطلّعت إليه المرأة الشابة فى حذر ، وهى تجيب :

ـ مساء الخير .. عم تبحث بالضبط ؟

أجاب بسرعة ، قبل أن يتراجع :

ـ أبحث عن الآنسة (إيناس) .. (إيناس حسن) .

حدّقت فى وجهه بدهشة ، وقالت :

ـ (إيناس) ؟! .. هل تعرف (إيناس) ؟

أجاب فى ارتباك :

ـ نعم .. أنا .. أنا ..

بأية صفة يقدّم نفسه إليها ؟ ..

أية صلة تبيح له المجىء إلى منزل فتاة شابة ، للسؤال عنها ؟ ..

فتاة لم يعرف اسمها إلا منذ ساعة ، أو أقل قليلًا ..

ولكن تلك المرأة الشابة لم تمنحه فرصة للتفكير أو البحث ..

لقد تعلّقت به بغتة ، هاتفة :

ـ أين (إيناس) ؟ .. أين هى ؟

هتف فى دهشة وانزعاج :

ـ أين هى ؟! .. أتسالينني أنا ؟

فوجئ برجل ضخم الجثة يندفع من الداخل ، ويجذبه إليه من قميصه فى عنف ، وهو يقول فى غضب صارم :

ـ من أنت ؟ .. وأين ذهبت بتلك الفتاة المجنونة ؟

حاول (نجيب) أن يتملّص منه فى عنف ، وهو يقول :

ـ سيّدى .. اتركنى أرجوك .. أنا هنا للسؤال عنها .

أطلق الرجل ضحكة عصبية ساخرة ، ثم جذبه إلى داخل المنزل فى غلظة ، قائلًا :

ـ أتظنك تخدعنى بهذه السخافات ؟! .. لا يا رجل .. أنا تاجر قديم محنك ، وأعرف جيدًا المراوغين من أمثالك .

ودفعه إلى صالون أنيق فاخر ، ثم أجلسه عنوة فوق أحد مقاعده ، وزوجته من خلفه ، تقول فى هلع :

ـ (رفعت) .. اتركه يا (رفعت) .. لا داعى لكل هذا التهور والعصبية .

ولكن زوجها صاح بها فى خشونة :

ـ اصمتى .

انكمشت على نفسها ، وتراجعت خائفة ، فى حين نظر هو إلى (نجيب) فى شراسة ، وقال :

ـ أين ذهبت (إيناس) ؟ .. كيف أقنعتها بالهرب ؟

هتف (نجيب) :

ـ الهرب ؟! .. هل هربت (إيناس) ؟

صاح به الرجل :

ـ هل تتظاهر بعدم الفهم ؟

كان من الممكن أن يحتمل (نجيب) ثورته ، ويتفادى إثارة المزيد من غضبه ، لو أن الأمر يخصه وحده ، أما وهو يتعلّق بـ (إيناس) ، فقد تجاهل (نجيب) نفسه تمامًا ، ولم يهتمّ بقوة الرجل وخشونته وغضبه ، وهو يصيح فى وجهه :

ـ كفى سخافة .. إنك تهاجمنى دون أى منطق أو تفكير ، وتتهمنى بأننى المسئول عن هروب (إيناس) ، دون أن تسأل نفسك لحظة ، لماذا أعود إلى هنا ، وقد نجحت فيما خططت ودبّرت ، على حد قولك ؟ ..

تراجع الرجل أمام ثورة (نجيب) المفاجئة ، وقال فى عصبية ، وكأنه يخشى الاعتراف بخطئه :

ـ المجرم يحوم دائمًا حول مسرح الجريمة ؟

اعتدل (نجيب) ، وقال :

ـ أو يحاول إلقاء التبعة على الآخرين .

شحب وجه الرجل ، وانكمشت زوجته أكثر ، وهى تلقى نظرة خائفة عليه ، قبل أن يتمتم الرجل :

ـ ماذا تقصد ؟

قال (نجيب) فى حدة :

ـ أقصد أنه ربما كان هناك سبب آخر لهروب (إيناس) .

تراجع الرجل أكثر ، وبدا لحظة أشبه بأرنب مذعور ، ثم لم يلبث أن استعاد غلظته وشراسته ، وهو يقول :

ـ ومن ذا الذى يهتمّ بهروب فتاة طائشة مجنونة مثلها .. ألا تعرف ماذا ينتظرها ؟ .. إنها مصابة بمرض لا شفاء منه ، وأنا الذى ينفق الكثير على علاجها ، ثم تأتى فى النهاية فترفض ما أقدّمه لها ، وتهرب من منزلى .. هيا .. دعها تتسوّل للحصول على نفقات علاجها .

لم يشعر (نجيب) فى حياته بالبغض والكراهية ، مثلما شعر بهما تجاه هذا الرجل ، فقال له فى حدة :

ـ لو أننى فى موضعها ، لفضّلت الموت ، على أن ينفق على علاجى رجل مثلك .

صاح الرجل فى وجهه غاضبًا :

ـ رجل مثلى ؟! .. أتهيننى فى منزلى يا رجل ؟ .. إننى أمتلك الآن شرعية قتلك ، دون أن يسألنى أحد لِمَ فعلت هذا .. سأقول أنك اقتحمت منزلى عنوة ، و ..

قاطعته زوجته فى انهيار :

ـ كفى يا (رفعت) .. كفى .

التفت إليها ، صائحًا فى غلظة :

ـ اصمتى .

صرخت ثائرة :

ـ كلّا يا (رفعت) .. لن أصمت هذه المرة .. لقد لزمت الصمت طويلًا ، ولن أصمت أكثر من هذا .. صمتى هذا هو الذى تسبَّب فى عذاب شقيقتى الوحيدة ، وفى ذلها ومهانتها .. صمتى هو السبب فى فرارها من هنا ، وضياعها إلى الأبد .

ولدهشة (نجيب) ، تراجع الرجل مبهوتًا ، وبدا الانزعاج واضحًا فى عينيه ، وهى تواصل فى ثورة ، موجِّهة حديثها إلى (نجيب) :

ـ نعم يا أستاذ .. أنا وشقيقتى (إيناس) من عائلة مرموقة فى (الإسكندرية) ، مات والدنا قبل انتهاء دراستى الثانوية ، وترك لنا ثروة صغيرة ، أنفقتها أمى كلها على تعليمنا ، حتى تخرَّجت أنا من كلية الآداب ، وتزوَّجت (رفعت) هذا ، ثم التحقت (إيناس) بعد زواجى بكلية التجارة ، ولكنها لم تستطع إتمام دراستها بها ؛ بسبب وفاة أمى ، وإصابة (إيناس) بذلك المرض الخبيث .

وانهمرت الدموع من عينيها فجأة ، وهى تتابع فى انهيار :

ـ وطلبت أنا من (إيناس) أن تحضر من (الاسكندرية) ؛ لتقيم معنا هنا فى (القاهرة) ، وأقنعت زوجى بدفع نفقات علاجها .. ولكنه لم يكن شهمًا أو كريمًا معنا .

تصوَّر (نجيب) أن الرجل سيثور ويغضب ، عندما بلغت زوجته هذه النقطة ، إلا أنه ـ على العكس ـ ازداد انكماشًا ، وأطرق بوجهه أرضًا ، وهى تواصل باكية فى مرارة :

ـ صحيح أنه دفع نفقات علاج (إيناس) ، ولكنه بالمقابل راح يعاملها كما لو كانت خادمة ، ويطالبها برعاية أطفالنا ، وتنظيف

المنزل ، وشراء كل ما يحتاجه المنزل ، كان يعاملها فى قسوة وغطرسة ، والمسكينة تحتمل كل هذا صامتة صابرة ، مقابل نفقات علاجها وإقامتها ، وأنا أحاول التهوين عليها ، والتخفيف عنها ، ولكن كرامتها أبت عليها أن ترتدى شيئًا من الثياب ، التى كنت أبتاعها لها خلسة ،وراحت تستهلك أثوابها ، حتى لم يتبق لديها سوى ثوب وردى واحد ، كانت ترتديه كلما خرجت فى رحلة علاج ، وترتدى الثياب الرثة الأخرى فى المنزل ، وفى أثناء التسوّق .

ازداد زوجها ، انكماشًا ، وكأنما يعترف بجرمه ، فى حين واصلت هى ، ودموعها تزداد غزارة :

ـ وأكثر ما يؤلمنى هو أن الجيران ظنوا أنها خادمتنا ، وليست شقيقتى ، حتى أن واحدة من الجارات سبتها بكلمات قاسية ، ولطمتها على وجهها وهى فى طريقها لحضور آخر جلسة علاجية ذهبت إليها .

استعاد (نجيب) مشهد (إيناس) ، وذلك الحزن المضاعف فى عينيها ، وتمتم فى حزن وألم :

ـ نعم .. لقد ترك هذا أثره فيها .

بكت المرأة فى حرارة أكثر ، وهى تقول :

ـ يومها ذهبت (إيناس) لحضور جلستها العلاجية ، ولكنها لم تعد أبدًا .. لقد هربت أختى الوحيدة .. هربت أو ..

احتبست الكلمات فى حلقها ، الذى غُص لحظات بدموعها ، قبل أن تقول :

ـ أو انتحرت .

مرت فى جسد (نجيب) قشعريرة عنيفة ، مع تلك الاستطرادة الأخيرة ، فهب من مقعده ، هاتفًا :

ـ لا .. مستحيل !

خفضت المرأة عينيها ، وهى تقول بحزن جارف :

ـ لماذا مستحيل ؟ .. لقد ذاقت العذاب صنوفًا وألوانًا .. وعانت طويلًا وكثيرًا من المرض ، الذى تعلم ألا شفاء منه ، وربما انتابها اليأس ، و ... و ...

لم تستطع إكمال عبارتها ، فانفجرت باكية فى حرارة ، وكاد (نجيب) يشاركها بكاءها ، لولا أن سيطر على مشاعره فى شدة ، وهو يلتفت إلى زوجها ، ويسأله فى خشونة :

ـ هل بحثت عنها ؟

خيل إليه أنه يتحدث إلى رجل آخر ، فقد كل شراسته وغلظته ، وغرق فى بحر عميق متلاطم الأمواج ، من الندم والأسف ، وهو يجيب فى خفوت :

ـ نعم .. سألت كل المستشفيات ، وأقسام الشرطة ، ومراكز الإسعاف .. بحثت عنها فى كل مكان ، ولم أعثر لها على أثر .

ثم خفض عينيه أكثر ، وهو يستطرد ، فى لهجة ذليلة :

ـ لم أكن أقصد إيلامها .

صاح به (نجيب) :

ـ كل هذا ولم تكن تقصد إيلامها ؟! .. ما الذى كنت ترغب فى فعله أكثر مما فعلت .. لقد جرّدتها من آدميتها وإنسانيتها ، ورفضت

أن تمنحها نفقات علاجها دون مقابل .. أى وحش أنت .

انكمش الرجل أكثر وأكثر ، دون أن يجرؤ على الاعتراض ، فى حين قال (نجيب) فى حزم :

ـ سأكرر البحث .. سأسأل عنها كل أقسام الشرطة والمستشفيات مرة ثانية .. سأقلب الأرض بحثًا عنها .. ولن يهدأ لى بال حتى أجدها بإذن الله .. وعلى قيد الحياة .

قالت المرأة فى لهفة :

ـ أبلغنى بم تتوصل إليه .. أرجوك .

ألقى نظرة غاضبة على زوجها ، ثم قال فى حسم :

ـ اطمئنى يا سيدتى .. سأفعل بإذن الله .

وعندما غادر منزلها ، كانت البقية الباقية من حياته قد اقتصرت على هدف واحد ..

البحث عن ذات الرداء الوردى والعينين الجميلتين ..

عن (إيناس) .

٥ ـ أين قلبى ؟ ..

ستفتش عنها يا ولدى ، فى كل مكان ..
وستسأل عنها موج البحر ..
وتسأل فيروز الشطآن ..

اغرورقت عينا (نجيب) بالدموع ، وهو يستمع إلى تلك الأغنية ، التى يشدو بها المطرب الراحل (عبد الحليم حافظ) ، والتى بدت وكأنها تعبّر تمامًا عن حالته ، بعد أن قضى ليلته كلها بحثًا عن (إيناس) ، فى كل مستشفى ، وقسم للشرطة ، ومركز طوارئ أو إسعاف ، فى (مصر) كلها ..

وفى مرارة ، امتدت أصابعه تطفئ المذياع ، الذى تنبعث منه الأغنية ، وغمغم لنفسه فى ألم :

ـ أين أنت يا (إيناس) ؟ .. أين ذهبت ؟

كانت عقارب ساعته تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل ، عندما أوقف سيارته أمام منزله ، وصعد إلى شقته ، واستقبلته أمه فى اضطراب شديد ، وهى تهتف به :

ـ (نجيب) .. أين كنت ؟ .. لقد قلبت الدنيا بحثًا عنك ، عندما تأخرت فى العودة .. أين ذهبت ؟

انهار فوق أقرب مقعد إليه ، وهو يقول :

ـ كنت أبحث عن (إيناس)

قالت فى دهشة :

ـ تبحث عن (إيناس) ؟!

ثم استدركت فى حدّة :

ـ ولماذا لم تخبرنى ؟ .. لماذا تركتنى أتعذب وأرتعد طيلة النهار ؟

انتبه لحظتها فقط إلى أنه لم يخبر أمه بغيابه ..
وأنه تركها مذعورة خائفة ، تبحث عنه طوال الوقت ..
وهتف :

ـ ربّاه ! .. كيف لم انتبه إلى هذا ؟ .. سامحينى يا أمى .. أرجوك .

وفجأة تفجّرت كل مشاعره وانفعالاته دفعة واحدة ، فانفجر يبكى فى مرارة ويأس ، فاختلج قلب أمه ، وانتفض بين ضلوعها ، وهى تحتويه بين ذراعيها فى حنان وجزع ، هاتفة :

ـ (نجيب) .. ابنى .. ماذا أصابك ؟

انهمرت دموعه فى غزارة ، وهو يقول :

ـ لقد فقدتها يا أمى .. فقدتها .

سألته فى لوعة :

ـ أتقصد (إيناس) ؟

أجابها فى مرارة :

ـ نعم يا أمى .. (إيناس) .

جلست إلى جواره ، وهى تقول فى حنان :

ـ إنك لم تخبرنى حتى أن اسمها (إيناس) ، ولكن هيا .. قُص علىّ القصة كلها .

روى لها كل ما حدث ، واستمعت إليه هى فى اهتمام ، وملامحها تنقل انفعالها لحظة بلحظة ، حتى انتهى من روايته ، فقالت :

ـ إذن فلم تحصل على جلستك العلاجية اليوم .

تطلّع إليها فى دهشة ، وهو يقول :

ـ أمى ! .. أهذا كل ما يهمك ؟

قالت فى سرعة :

ـ بالطبع .. صحتك هى أغلى شىء فى حياتى .

قال فى ضيق :

ـ و (إيناس) هى أغلى شىء فى حياتى أنا .

صمتت أمه لحظة ، وهى تتطلّع إليه ، ثم نهضت لتسير فى ردهة المنزل بعض الوقت ، قبل أن تلتفت إليه ، قائلة :

ـ متى يحين موعد جلستك القادمة ؟

أجابها فى حيرة :

ـ بعد ثلاثة أيام .

سألته فى اهتمام :

ـ ماذا يحدث ، عندما تفقد إحدى الجلسات ؟

ابتسم ، وهو يجيب :

ـ اطمئنى .. هذا أمر يمكن تعويضه .

ثم اضطربت ملامحه ، وهو يستطرد :

ـ ولكن انقطاع (إيناس) عن عدد كبير من الجلسات ، سيجعل حالتها تسوء أكثر وأكثر .. لابد من العثور عليها فى أسرع فرصة ممكنة يا أمى ، وإلا تعرّضت للخطر .

واغرورقت عيناه بالدموع مرة أخرى ، وتابع :

ـ أعلم أنه ما من أمل فى شفائها أو شفائى .. فى الوقت الحالى على الأقل ، ولكن لِمَ لا ..

قاطعته فى لوعة :

ـ لا .. لا تكمل .

وقاومت دمعة حزينة ، حاولت القفز من عينيها ، قبل أن تستطرد :

ـ إننا لم نفقد الأمل فى العثور عليها بعد .

قال فى مرارة :

ـ لقد بحثت فى كل مكان ، و ...

قاطعته مكملة :

ـ ولكنك لم تبحث فى عنوانها الثانى .

برقت عيناه فجأة ، وهبّ واقفًا ، وهو يهتف :

ـ بالطبع .. كان ينبغى أن أذهب للبحث عنها فى (الإسكندرية) .. فى مسقط رأسها .. كيف لم أنتبه إلى هذا ؟

احتضن أمه ، وانهال عليها بالقبلات ، وهو يقول :

ـ أشكرك يا أمى .. أشكرك كثيرًا .

ثم اختطف مفاتيح سيارته ، وهو يستطرد :

ـ سأرحل على الفور ، و ...

صاحت به :

ـ (نجيب) .. هل نسيت مرضك ؟

توقّف لحظة ، ثم قال :

ـ لا يا أمى .. لم أنس مرضى ، ولكننى لا أستطيع البقاء هنا ، وأنا أجهل أين وكيف هى .. لا يمكننى هذا قط .

قالت فى عصبية :

ـ على الأقل انتظر حتى الصباح .. سيقتلنى الخوف ، لو أنك سافرت بسيارتك الآن إلى (الإسكندرية) .

قال فى لهجة أقرب إلى الضراعة :

ـ يمكننى استئجار سيارة خاصة ـ

تطلّعت إليه لحظة فى صمت ، ثم تنهّدت فى عمق ، وقالت :

ـ نعم .. ربما كان هذا أفضل .

كانت تدرك أنها لن تستطيع منعه ، وأنه ـ لو بقى ـ فسيتعذّب كثيرًا ، حتى تشرق الشمس ؛ لذا فليس أمامها سوى الاستسلام ، ومحاولة البحث عن أكثر الوسائل أمنًا ، ومناسبة لبنيته الضعيفة ، وجسده المريض ..

وفى الثالثة صباحًا ، كانت سيارة خاصة تنطلق به إلى (الإسكندرية) ، وهو يجلس داخلها صامتًا ، وقلبه ينبض باسمها ..

تُرى هل يعثر عليها هناك ؟

هل يجدها فى منزل أسرتها ، بعد أن هربت من جحيم زوج شقيقتها ؟ ..

ولكن لماذا لم تبحث عنها شقيقتها هناك ؟ ..

لماذا لم تحاول السفر إليها ؟ ..

ترك عشرات الأسئلة تجوب عقله ومشاعره ، دون أن يبحث عن

جواب لها ، وتسلّل النوم إلى عينيه فى بطء ، فأسند رأسه إلى مسند مقعده ، وأسبل جفنيه ، و ..

وراح فى نوم عميق ..

« استيقظ يا أستاذ (نجيب) .. لقد وصلنا .. » .

فتح عينيه فى دهشة ، وتطلّع إلى كورنيش (الإسكندرية) ، وإلى أضواء الفجر الأولى ، التى تظهر من خلف البنايات الكبيرة ، المطلّة على البحر ، واعتدل يدعك عينيه ، قائلًا :

ـ كم الساعة الآن ؟

أجابه السائق :

ـ السادسة إلا الربع .. هل تبحث عن فندق مناسب ؟

كان يتمنى لو بدأ بحثه عن (إيناس) مباشرة ، ولم يحاول مقاومة هذه الرغبة ، وإنما قال على الفور :

ـ كلّا .. سنذهب إلى العنوان الذى لدينا على الفور .

بدا الضيق على وجه السائق ، إلا أنه لم يكن يملك سوى طاعة الأوامر ، فانطلق بالسيارة بمحاذاة الكورنيش ، حتى بلغ منزل أسرة (إيناس) ، فى السادسة والنصف صباحًا ، وسأل (نجيب) :

ـ هل سنطرق بابهم ، فى هذه الساعة المبكرة ؟

أجابه (نجيب) :

ـ نعم .. لو أننا عثرنا على أحد هنا ، فلن يكون سوى (إيناس) ، ومن مصلحتها أن أعثر عليها بأسرع وسيلة ممكنة .

طرق باب الشقة ، والأمل يملأ صدره ، ويدفع قلبه للخفقان ، إلا أن هذا الأمل لم يلبث أن انكمش تدريجيًا ، مع مضى الوقت ، دون أن

يستجيب أحـد لطرقاته ، فقال السائق فى ضجر :
ـ من الواضح أنه لا يوجد أحد هنا .
قال فى صرامة :
ـ لن نستسلم بهذه السرعة .
قال السائق فى عصبية :
ـ إننا لا نخوض حربًا .. كنا نبحث عن فتاة ولم نجدها .
صاح به (نجيب) فى غضب :
ـ فليكن .. لن ننصرف ، قبل أن أثق تمامًا فى أنها ليست هنا .
أشاح السائق بوجهه فى حنق ، وواصل (نجيب) طرقاته بعض الوقت ، حتى فُتِح باب الشقة المجاورة لشقة (إيناس) ، وظهرت من خلفه امرأة عجوز ، تطلّعت إليه وإلى السائق فى حذر ، ثم سألته :
ـ من أنت ؟ .. وماذا تريد ؟
أجابها (نجيب) فى توتّر :
ـ أنا أبحث عن الآنسة (إيناس) .. أنا زميل لها .
تطلّعت إليه فى شك ، وهى تقول :
ـ زميل لها ؟! .. فى أى عمل ؟
قال فى عصبية :
ـ زميل دراسة ، و ...
صمت لحظة ، ثم تابع فى توتّر :
ـ وخطيبها .
تهلّلت أسارير العجوز ، وهى تقول :

ـ خطيبها ؟! .. خطيب (إيناس) .. أهلا يا ولدى .. تفضّل .
سألها فى لهفة :
ـ هل (إيناس) هنا ؟
ابتسمت مكرّرة :
تفضّل يا ولدى .. تفضّل .
قبل دعوتها متصوّرًا أن (إيناس) قد قضت ليلتها لديها ، ودعته العجوز مع السائق إلى الجلوس فى حجرة الصالون ، وقالت بابتسامة واسعة حنون :
ـ (إيناس) فتاة رقيقة مهذبة ، وأنت شاب محظوظ ، لأنها قبلت خطبتك لها .
فرك كفيه فى توتّر ، وهو يقول :
ـ إنها لم تقبل بعد فى الواقع .
رفعت العجوز حاجبيها فى دهشة ، ثم لم تلبث أن خفضتهما ، وهى تقول :
ـ آه .. فهمت .. أنت تحبها إذن .
مطّ السائق شفتيه فى ازدراء ، فى حين تمتم (نجيب) :
ـ نعم .. أحبها .
هزّت رأسها بابتسامة كبيرة ، وقالت :
ـ أحسنت الاختيار يا ولدى .. (إيناس) كانت دائمًا فاتنة الحى كله .. الجميع ذابوا فى رقتها وطيبتها وأدبها الجم ، وكلنا كنا نتساءل عمن سيختاره قلبها ، ويفوز بها .. يا له من زمن ! .. كم أوحشتنى (إيناس) وشقيقتها ، و ..

هبَّ من مقعده ، هاتفًا :

ـ أوحشتك .. أتعنين أنك لا تعرفين أين هى ؟

سألته فى جزع :

ـ أعرف أين هى ؟! .. لماذا ؟ .. أليست تقيم مع شقيقتها وزوجها فى (القاهرة) .

زفر فى مرارة ، وقال :

ـ كانت كذلك ، ولكنها هربت ، و ...

قاطعته صائحة فى ذعر :

ـ هربت ؟!

أمسك كتفيها ، وهو يقول بسرعة :

ـ سيِّدتى .. أرجوك .. سأشرح لك كل شىء فيما بعد ، ولكننى الآن أريد أن أعرف أين (إيناس) ؟ .. أين يمكن أن أجدها ؟

اغرورقت عينا العجوز بالدموع ، وهى تقول :

ـ تجدها .. مادامت لم تعد إلى هنا فقد ضاعت يا ولدى .. ضاعت إلى الأبد .

وانهمرت الدموع من عينيها غزيرة .

★ ★ ★

٦ ـ الضائعـــة ..

هبَّ النسيم عليلًا ، على شاطئ (الإسكندرية) ، وتطايرت خصلات شعر (نجيب) فى نعومة ، وهو يستند بمرفقيه إلى حاجز الكورنيش ، ويتطلَّع فى صمت حزين إلى الأفق ..

لم يكن فى الواقع يتطلَّع إلى شىء محدود ، ولكنه كان شارد الذهن ، واجمًا ، وقد تجمَّدت كل مشاعره وانفعالاته ، وتوقَّفت عند علامة الحزن ، التى رسمت خطوطهاالعميقة فى ملامحه ونظراته الهائمة الشاردة ..

لقد فقد (إيناس) ..

فقدها بعد أن فعل كل ما فعل من أجلها ..

لم يعد يدرى حتى أين يمكنه أن يبحث عنها ..

أين يجدها ؟ ..

راودته فكرة الإعلان فى الصحف ، إلا أنها بدت له سخيفة إلى حدّ كبير ..

ماذا يمكن أن يقول فى الإعلان ؟ ..

بأية صفة يتحدَّث إلى (إيناس) عبر الصحف ؟ ..

ثم هل ستقبل هذا النداء ؟ ..

هل سيروق لها نشر اسمها ومرضها على هذا النحو ؟ ..

توَّقف طويلًا عند هذه النقطة ، وراح يبحث فكرة الإعلان مرة أخرى فى ذهنه ، حتى قاطعه السائق ، وهو يقول :

ـ ألن نذهب لنتناول الطعام ؟ .. إنها الثانية ظهرًا ، ولم نتناول حتى طعام الإفطار .

التفت إليه (نجيب) ، وسأله فى اهتمام :

ـ قل لى : ما رأيك فى إعلان بالصحف ؟

حدّق السائق فى وجهه بدهشة ، وقال :

ـ إعلان ماذا ؟ .. ماذا تقصد بالضبط يا أستاذ (نجيب) ؟

لوّح (نجيب) بكفيه دون معنى ، وهو يقول :

ـ إعلان بالصحف .. إعلان مثل أى إعلان آخر ، نطلب فيه من (إيناس) العودة ، و ...

لم يستطع إتمام عبارته ، من فرط توتّره وانفعاله ، فاكتفى بالتلويح بكفيه مرة أخرى ، قبل أن يضيف :

ـ وكل ما تقوله الإعلانات الشبيهة .

التقط السائق نفسًا عميقًا ، وقال فى ضيق وملل :

ـ فكرة جيّدة ، لو أنها تقرأ الصحف ، ولكن ألن نتناول الطعام أوّلًا .

هتف (نجيب) فى عصبية :

ـ أى طعام هذا ؟

قال السائق فى حدّة :

ـ طعام الغداء .. إننا لم نتناول حتى طعام الإفطار ، حتى هذه اللحظة ، وأنت مريض ، و ...

قاطعه (نجيب) فى غضب :

ـ دعك من مرضى ، وتناول أنت الطعام لو أردت .

قال السائق فى صرامة :

ـ ولكن والدتك أوصتنى بـ ..

قاطعه مرة أخرى محتدًا :

ـ لست طفلًا صغيرًا ، ولقد اتصلنا بأمى فى الصباح ، وعلاقتى بها وبطعامى لا تخصّك .. هل تفهم ؟ .

همهم السائق بكلمات ساخطة متبرّمة ، ولاذ بالصمت فى ضيق ، فعاد (نجيب) يتطلّع إلى الأفق بعض الوقت ، ثم قال فى خفوت ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ هل سمعت ما يقولونه عنها ؟ .. كل من عرفوها أجمعوا على أنها فتاة رقيقة ، مهذّبة ، صادقة المشاعر ، حسنة التربية .. أين يمكنك أن تجد فتاة لها كل هذه الصفات ، فى هذا العصر ؟

مطّ السائق شفتيه ، دون أن يجيب ، فتابع هو :

ـ أليس من المؤلم أن تصاب مثلها بمرض لا شفاء منه ؟

تمتم السائق :

ـ ليست وحدها .

لم يكن السائق يعنيه بالذات ، إلا أنه تصوّر هذا ، فقال فى أسى :

ـ ربما لهذا أشعر بها وأتعاطف معها .. بل أحبها .

تنهّد السائق مرة أخرى ، وقال :

ـ وماذا عن الطعام ؟ .

التقى حاجبا (نجيب) فى غضب ، ثم التفت إليه ، قائلًا فى حدة :

ـ لماذا تصاحبنى ؟

بُهت السائق للسؤال ، وتمتم مرتبكًا :

ـ أنت طلبت هذا .

أجابه (نجيب) فى انفعال :

ـ خطأ .. مهمتك كانت تقتصر على إيصالى إلى (الإسكندرية) ، وبعدها يمكنك أن ترحل وتتركنى وحدى ، وسيمكننى العناية بشئونى .. هل تفهم ؟

لم يحاول السائق مناقشته ، بل اكتفى بهمهمة أخرى ساخطة ، وهويقول :

ـ فليكن .. وماذا عن أجرى ؟

هتف (نجيب) ، وهو يناوله ثلاث ورقات مالية كبيرة :

ـ ها هو ذا .. هذا أكثر مما اتفقنا عليه .. أليس كذلك ؟ .. والآن هيا .. ارحل واتركنى وحدى .

تناول السائق النقود ، ودسّها فى جيبه دون مناقشة ، وركب سيارته ، وانطلق بها مبتعدًا ، وتركه وحده ..

وزفر (نجيب) فى ارتياح ، وكأنما كان وجود السائق يثقل كاهله ، وعاد يتطلّع إلى الأفق ، والنسيم يداعب خصلات شعره الناعمة ..

ما عيب فكرة إعلان الصحف ؟ ..

لماذا بدت له سخيفة فى البداية ؟ ..

إنها ـ على العكس ـ فكرة رائعة للغاية ..

لن يحتاج حتى إلى تحديد صفة تعامله مع (إيناس) ..

يكفى أن يشير إلى اسمه فحسب ..

«عودى يا (إيناس) .. إننى انتظرك لنواصل علاجنا معًا .. (نجيب) ..» ..

إعلان مختصر وبسيط ، وستفهمه هى على الفور ، لو أنها فقط قرأت الإعلان ..

كم يتمنى أن تقرأ الإعلان ..

اقتنع أكثر وأكثر بالفكرة ، وراح يتمتم فى خفوت :

ـ ولِمَ لا ؟ .. هذا ما كان ينبغى أن أفعله ، بعدما أخبرتنى جارتها العجوز أنه ما من مكان آخر ، يمكن أن تلجأ إليه (إيناس) ، فى (الإسكندرية) كلها ، سوى بيت أسرتها ..

عاد ذهنه يضطرب ، عندما ألقى فى نفسه سؤالًا آخر ..

أهى حقًا فى (الإسكندرية) ؟! ..

ألا يحتمل أنها لا تزال فى (القاهرة) ؟ ..

ثم هتف لنفسه :

ـ فليكن .. الإعلان هو الفكرة الأمثل ، فى كل الظروف والأحوال .

حسم أمره ، عند هذه النقطة ، واستدار فى حزم ، واندفع يعبر الطريق ، و ..

وفجأة ، ارتفع صرير إطارات سيارة مسرعة ، وقائدها يضغط فراملها بكل قوته ، محاولًا تفادى الارتطام ، ولكن ..

لم يكن هناك مفرّ ..

لقد تخطّى (نجيب) الافريز ، دون أن ينتبه إلى السيارة القادمة ، وشعر بالارتطام ، وقفز جسده عدة أمتار إلى الأمام ، ثم اصطدم بالأرض ، وأظلمت الدنيا أمام عينيه ..

وانتهى كل شىء ..
ظلام تام ، آلام تتلاشى فى بطء ..
وصورة (إيناس) تملأ ذهنه كله ..
وجهها ..
عيناها ..
ثوبها الوردى ..
لم يعد فى ظلمته سواها ..
ثم شعر بتلك الأنامل الرقيقة تتحسّس جبهته ، ووجد نفسه يهتف :
ـ (إيناس) .. أهو أنت ؟ ..
أتاه صوت أنثوى رقيق ، يقول :
ـ كلّا .. لست (إيناس) .. أنا (لبنى) .
تمتم فى حيرة ، وهو يحاول فتح عينيه :
ـ (لبنى) ؟! .. (لبنى) من ؟!
سمع ضحكة أنثوية خافتة ، أعقبها نفس الصوت ، قائلًا :
ـ ستعرف عندما تستيقظ .
فتح عينيه فى صعوبة ، وبدت له الصور فى البداية مهتزّة ، ثم لم يلبث أن تبيّن تفاصيلها بالتدريج ..
كان داخل حجرة فى مستشفى ما ، وإلى جواره أمه ، التى تتطلّع إليه فى لهفة ، والدموع تسيل من عينيها ، وتُغرق وجهها ، والكلمات تنهمر من شفتيها مغموسة فى الحنان واللوعة ، وهى تقول :
ـ (نجيب) .. حمدًا لله على سلامتك يا بنى .. حمدًا لله .

وألقت أمه نفسها على صدره ، وانخرطت فى بكاء حار ، فى حين وقع بصره هو على شابة جميلة بحق ، لا يمكن القول إلا أنها فاتنة ، بوجهها الساحر ، وعينيها العسليتين الواسعتين ، وشعرها الكستنائى الناعم ، الذى ينسدل من جانبى غطاء الرأس الذى ترتديه ، وشفتيها الحمراوين ، الذين ارتسمت عليهما ابتسامة عذبة ، وهى تقول :
ـ حمدًا لله على سلامتك يا أستاذ (نجيب) .. هل عرفت الآن من أنا ؟
قال فى دهشة :
ـ أأنت ممرضة ؟
أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :
ـ نعم .. ممرضتك منذ عصر أمس ، عندما نقلوك إلى هنا .
حدّق فى وجهها بذهول ، وهتف :
ـ أمس ؟!
أجابته أمه فى حنان :
ـ نعم يا (نجيب) .. أنت هنا منذ عصر أمس .. لقد غادرك السائق ، ولم يكد يبتعد قليلًا ، حتى رآك فى مرآة سيارته تعبر الإفريز ، ورأى السيارة تصدمك ، فعاد مسرعًا إليك ، ونقلك إلى هذه المستشفى ، واتصل بى ليبلغنى بالأمر ، ولست أدرى حتى كيف أمكننى الوصول إلى هنا ، مع كل الهلع والذعر فى نفسى ، ولكننى وصلت لأجدك فاقد الوعى ، وهذه الممرضة ـ حفظها الله ـ ترعاك بكل اهتمام وإخلاص ، حتى استعدت وعيك الآن .. إنها تستحق كل الشكر .

رفع عينيه إلى الممرضة ، وغمغم :
ـ أشكرك يا آنسة (لبنى) .
ابتسمت ابتسامة جذّابة ، وقالت :
ـ عفوًا .. لم أقم إلا بواجبى .
ثم ربّتت على كتف أمه ، مستطردة :
ـ حمدًا لله على سلامة (نجيب) .. لن أبتعد كثيرًا ، وإذا ما أردتما شيئًا ، ستجدانى فى الجوار .
قالتها وغادرت المكان فى خطوات رصينة سريعة ، وتابعتها أمه ببصرها ، ثم قالت فى حنان :
ـ فتاة رائعة .
تمتم فى مرارة :
ـ ربّما .. ولكنها ليست أفضل من (إيناس) .
التفتت إليه أمه فى تعاطف مشفق ، وتحسّست جبينه ، وهى تغمغم :
ـ كل شىء نصيب يا ولدى .
بدا وكأنه يهمّ بالبكاء ، وهو يقول :
ـ كل ما أتمناه هو أن تستكمل علاجها .
تنهّدت فى أسى ، ومسحت جبينه بأناملها مرة أخرى ، وهى تقول فى خفوت :
ـ لا تفقد الأمل أبدًا يا ولدى .
ثم سألته بغتة :
ـ ولكن لماذا تبحث عن (إيناس) ؟

تطلّع إليها فى دهشة ، وقال :
ـ لماذا أبحث عنها ؟! ..
أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :
ـ نعم .. ألم تسأل نفسك أبدًا هذا السؤال ؟! .. لماذا تبحث عن (إيناس) ، وما الذى تريده منها بالضبط ؟ ..
أرتج عليه ، فلم يجد ما يقول ، وارتبك بشدّة ، وهو يهمس :
ـ ولكنك ساعدت فى البحث عنها .
أجابته بسرعة :
ـ لقد فعلت هذا من أجلك .. كنت تبدو وكأنما تعلّقت حياتك كلها بالعثور عليها ، ولم يكن من الممكن أن أعترض ، أو أقف فى طريقك ، فقد حذّرنى الدكتور (حسن) من هذا ، وطلب منى أن أعاونك ، حتى لا تنهار معنوياتك ، وتسوء حالتك الصحية ، ولكننى لم أسألك أبدًا لماذا تبحث عنها ؟
خفض عينيه ، دون أن يجيب ، فابتسمت أمه مشفقة ، وقالت :
ـ هل رأيت .. إنك لم تطرح هذا السؤال حتى على نفسك ؟ .
لم يسمع عبارتها الأخيرة ؛ فقد انشغل كيانه كله بالبحث عن جواب السؤال ..
لماذا يبحث عنها ؟ ..
لمـــاذا ؟

★ ★ ★

٧ ـ لمـــاذا ؟..

لم يمضّ (نجيب) ، فى حياته كلها ، ليلة أطول من هذه ..
لم يغمض له جفن ، منذ انصرفت أمه ، وحتى هذه اللحظة ..
ولم يهدأ عقله قط ..
كان يبحث عن جواب السؤال ..
لمـــاذا ؟ ..
لماذا يبحث عن (إيناس) ؟ ..
صحيح أنه يتمنى من كل قلبه ، لو أمكنه العيش إلى جوارها ، حتى آخر العمر ..
ولكن ما الذى يعنيه مصطلح (حتى آخر العمر) ..
أى عمر هذا الذى يتحدث عنه ؟ ..
وأية حياة ؟ ..
لقد انفصل عن (مها) ، لأنه مريض ، ويرفض أن تدفع هى ثمن مرضه ..
فهل تدفعه (إيناس) ؟ ..
أم أنه يسعى للوقوف إلى جوارها فى محنتها ؟ ..
يا للسخرية ! ..
من منهما يحتاج إلى من يقف إلى جواره ؟ ..
هو أم هى ؟ ..
بل كلاهما يحتاج إلى من يسانده ..
كيف لم يفكّر فى هذا ؟ ..

كيف تصوّر أنه يستطيع التقاط زهرة حب ، من بين أشواك المرض والعذاب ؟ ..
كيف لم ينتبه إلى الأمر ؟ ..
ترقرق دمع يائس فى عينيه ، وكاد ينحدر على وجنتيه ، لولا أن شعر بأحدهم يتسلل إلى حجرته فى خفة ، فرفع عينيه إلى الباب ، ورأى (لبنى) تبتسم ابتسامة ساحرة ، وهى تقول :
ـ هل أيقظتك ؟
غمغم فى أسى :
ـ إننى لم أنم بعد .
تقدّمت إليه وجلست على مقعد مجاور لفراشه ، وهى تقول :
ـ أهو الأرق ؟
أومأ برأسه إيجابًا ، فغمزت بعينها ، وقالت ضاحكة :
ـ إنها (إيناس) .. أليس كذلك ؟
أومأ برأسه إيجابًا مرة أخرى ، وقد غصّ حلقه بدموع حبيسة ، فتأمّلته (لبنى) لحظة ، ثم سألته :
ـ أهى حبيبة غادرة ؟
هزّ رأسه نفيًا ، وقال :
ـ على العكس .. هى حبيبة مسكينة ، أبحث عنها لأنها تحتاج إلى من يساندها فى محنتها .
سألته فى جدّية :
ـ وهل تعلم أنك تبحث عنها ؟
قال فى أسف :

ـ كلّا .. ولست أدرى حتى ماذا سيكون رد فعلها لو علمت .

غمزت بعينها مرة أخرى ، وقالت :

ـ أهو حب من طرف واحد ؟

ضايقه السؤال ، فلاذ بالصمت لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ ربّمـــا .

اعتدلت فى مقعدها ، وسألته :

ـ وما نتيجة بحثك عنها ؟

قال فى ألم :

ـ فقدت أثرها .. تتبّعت كل خيط يمكن أن يوصلنى إليها ، ولكن كل الخيوط انتهت إلى فراغ ، ولم يعد لدى أمل فى العثور عليها .

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ لا تفقد الأمل .. من يدرى ؟ .. ربما عثرت عليها بمعجزة .

ابتسم فى سخرية مريرة ، وقال :

ـ لقد مضى زمن المعجزات .

التفتت إليه ، قائلة فى حزم :

ـ من قال هذا ؟

قال :

ـ الجميـع .

ابتسمت فى سخرية ، وهى تقول :

ـ ومن أين أتى الجميع بهذا القول ؟ .. أمن (الكنترول) ؟!

مطّ شفتيه ، قائلًا :

ـ هذه الأمور لا تحتمل السخرية .

قالت فى بساطة :

ـ ولكن القول ـ فى حد ذاته ـ نوع من السخرية .. كيف يجرؤ مخلوق على القول بأن زمن المعجزات قد مضى ؟! .. من أين له بهذه الفكرة الحمقاء ؟ .. المعجزات يصنعها الخالق عزّ وجلّ ، ووجوده يعنى وجودها .. غرور الإنسان وحده ، فى العصر الحديث ، جعله يتصوّر أنه يمسك كل الخيوط بيديه ، وأن زمن المعجزات قد ولّى .

سألها وقد استكان لحديثها :

ـ هل رأيت ، فى حياتك كلها ، معجزة واحدة ؟

أجابت فى حماس :

ـ بل رأيت العشرات .

ثم اعتدلت مستطردة :

ـ كم من مرة رأيت مريضًا ، أكّد الأطباء أنه ما من أمل فى شفائه ، ثم تجاوز فجأة مرحلة الخطر ، وتعافى ، وشارك فى تشييع جنازة نفس الأطباء ، الذين جزموا بموته بين ساعة وأخرى .. هل تنكر حدوث هذا .

هزّ رأسه نفيًا ، وقال :

ـ كلّا .. ولكنها أمور نادرة .

قالت :

ـ بالطبع ، وإلا ما اعتبرناها معجزات .

ـ ربّما كان منطقك مقبولًا ، ولكن الإنسان لا يحيا فى انتظار المعجزات .

ـ ولا يفقد الأمل تمامًا فى وجودها أيضًا .

أحيانًا يفقد المرء الأمل فى كل شىء .

ـ إلا فى رحمة الله (سبحانه وتعالى) .

ـ وهل تتضمن رحمة الله (سبحانه وتعالى) ، عثورى على (إيناس) ؟

ـ بالتأكيد .. لو أن فى هذا خيرًا لك ولها .

تطلّع إليها لحظات ، عند هذه النقطة ، وقال :

ـ عجباً ! .. أنت جميلة وجذّابة ، وراجحة العقل ، فلماذا لم تتزوّجى حتى الآن ؟!

لم يكد يلقى سؤاله ، حتى بدا له فجًا ، يفتقر إلى الذوق واللياقة ، فتمتم فى ارتباك :

ـ معذرة .. لم أقصد هذا .

حافظت على ابتسامتها العذبة ، وهى تقول :

ـ لا عليك .. لست أوّل من يلقى هذا السؤال .

قالتها وأشاحت بوجهها لحظات ، مما أورثه شعورًا بالندم ، وحاول أن يعتذر مرة أخرى ، ولكنها تابعت فجأة :

ـ هل تصدّقنى ، لو أخبرتك أن العثور على زوج مناسب ، أكثر صعوبة من العثور على كنز خرافى ، فى عصرنا هذا ؟

رفع حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

ـ إلى هذا الحدّ ؟!

التفتت إليه مبتسمة ، ولكن ابتسامتها كانت مشوبة بشىء من الحزن هذه المرة ، وهى تكمل :

ـ نعم يا (نجيب) .. هذا ما تعلّمته من الدنيا .. مشكلتى أننى جميلة ، ومرحة ، وأن الكثيرين يتصوّرون أننى فريسة سهلة ، خاصة مع الفكرة الخاطئة عن عمل الممرضات وأخلاقهن .. لقد

اعتدت سماع كلمات الغزل من المرضى وبعض الأطباء ، ولكن أحدًا لم ينتبه أبدًا إلى عقلى وتفكيرى وشخصيتى .

وصمتت لحظة ، وهى تتطلّع إليه بابتسامة جميلة ، قبل أن تستطرد :

ـ فيما عداك .. أنت أوّل شخص يتحدّث عن رجاحة عقلى ، دون أن ينسيه جمالى هذا ، مما أدهشنى فى البداية ، ولكننى عرفت أنك غارق حتى أذنيك فى حب قديم ، حجب كل شىء عن عينيك ، فلم يترك لك سوى أذنيك وعقلك .

تنهّد ، وتمتم :

ـ ومن الواضح أننى فقدت هذا الحب إلى الأبد .

همست :

ـ حقًا ؟!

خُيّل إليه أنها نطقتها بحنان جارف ، ولهفة حقيقية ، كما لو أنها تتمنّى ضياع حبه بالفعل ، فالتفت إليها فى دهشة أخجلتها ، وجعلتها تخفض عينيها ، وتقول فى حزن :

ـ معذرة .. لم أقصد هذا .

حاول أن يبحث عن كلمة مجاملة مناسبة ، ولكنه لم يجد سوى كلمة واحدة :

ـ بالتأكيد .

غلّفهما صمت دام لحظات ، ثم قالت هى فى مرح مصطنع :

ـ والآن هل أصبتك بملل كاف ؛ لإزالة كل الأرق من رأسك ؟ .

قال مجاملًا :

ـ على العكس .. لقد استمتعت كثيرًا بحديثك .

هتفت بصوت متهدِّج هذه المرة :

ـ حقًا ؟!

ثم تضرَّج وجهه بحمرة الخجل مرة ثانية ، وهى تنهض ، قائلة :

ـ يمكنك أن تناديني ، إذا ما احتجت إلى شيء ما .. لن أبتعد كثيرًا .

وأسرعت تغادر حجرته ، وتركته وحيدًا ، يفكرّ فيما تبادلاه من حديث ..

ولكن تفكيره هذا لم يستغرق الكثير ..

لقد توارى فى سرعة ، خلف الفكرة الأساسية ، التى لم تفارقه حتى الصباح ..

فكرة العثور على (إيناس) ..

والهدف من هذا العثور ..

وانغمس عقله وقلبه فى التفكير ، حتى لم يشعر بمرور الوقت ، ولم ينتبه إلى شروق الشمس ، ورحلتها عبر السماء ، إلا مع صوت أمه ، وهى تقول :

ـ صباح الخير يا (نجيب) .. كيف حالك اليوم ؟

التفت إليها فى دهشة ، وقال :

ـ أمى ؟! .. ما الذى ..

كاد يسألها عن سر حضورها ، فى هذه الساعة المبكرة ، لولا أن لاحت منه التفاتة إلى النافذة ، فأدرك أن الشمس قد قطعت شوطًا طويلًا فى رحلتها ، منذ أطلّت فى الأفق ، فابتسم مكملًا :

ـ ما الذى أخَّرك هكذا ؟

طبعت أمه على وجنته قبلة حانية ، وهى تقول :

ـ إننى هنا منذ ساعة كاملة ، ولكنهم لم يسمحوا لى بالدخول ، قبل موعد الزيارة .

ثم تحسَّست شعره فى حنان ، مستطردة :

ـ كيف حالك اليوم ؟

لوَّح بكفه ، قائلًا :

ـ فى خير حال ، إننى لست أدرى لماذا يحتجزوننى هنا ؟

قالت مبتسمة :

ـ يقولون أن هذا ضرورى ، حتى يمكنهم ملاحظتك ، والتأكد من أن الارتطام لم يؤد إلى أضرار فعلية خفية .

سأل فى ضجر وتوتّر :

ـ وكم تستغرق هذه الملاحظة ؟

ربَّتت على رأسه ، كما كانت تفعل فى طفولته ، وقالت :

ـ (لبنى) أخبرتنى أنه يمكننا العودة إلى (القاهرة) ظهر الغد .

ثم همست فى حنان :

ـ رائعة (لبنى) هذه ، ومن الواضح أنها تميل إليك .

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

ـ هذا لا يعنى شيئًا .. إنها ..

بتر عبارته ، عندما دلفت (لبنى) إلى الحجرة ، وقالت بابتسامتها العذبة الساحرة :

ـ صباح الخير .. كيف حالك اليوم ؟

تمتم :

ـ فى خير حال .. شكرًا لك .

وتهلّلت أسارير أمه ، وهى تقول :

ـ من غير الممكن ألا يكون المرء فى خير حال ، عندما يرى وجهك المشرق يا بنيتى .

ابتسمت (لبنى) فى سعادة ، واختلست النظر إلى (نجيب) ، وهى تقول :

ـ تُرى أهذا رأى الجميع ؟

تمتم (نجيب) :

ـ بالطبع .

كان يشعر بالحرج ، فى مثل هذه المواقف ، فالتفت إلى أمه ، وقال محاولًا إدارة دفة الحديث إلى جانب آخر :

ـ هل نفذت فكرة الإعلان ؟

تردّدت أمه ، وهى تقول :

ـ أى إعلان ؟ .. أتقصد إعلان النداء ، الذى توجّهه إلى (إيناس) ؟

قال فى توتّر :

ـ بالتأكيد .. هل نسيته ؟

فركت كفيها فى توتّر مماثل ، وقالت :

ـ كلّا .. لم أنسه ، ولكن فكرة الإعلان هذه ...

قال فى حزم ، عندما شعر بعجزها عن الاستطراد :

ـ أمى .. إننى مصر على فكرة الإعلان ، فقد عثرت على جواب السؤال ، وحسمت أمر نفسى ، وعرفت لماذا أبحث عنها ؟

قالت فى حذر :

ـ حقًا !

لاحظت (لبنى) ذلك التوتّر ، فتنحنحت قائلة :

ـ معذرة .. هل يمكننى معرفة ما تتحدثان عنه ؟

خُيّل إليهما أن أمه كانت تتمنى تدخّل (لبنى) ، فقد اندفعت تقول :

ـ بالطبع يا بنيتى .. الواقع أن (نجيب) التقى بفتاة تدعى (إيناس) ، فى أثناء جلساته العلاجية ، فى مستشفى (.....) .. وهناك ..

قصت عليها القصة كلها بكلمات موجزة سريعة ، ولم يرق هذا لـ (نجيب) ، وإن أدهشه ذلك الشحوب ، الذى كسى وجه (لبنى) ، وهى تستمع إليها ، قبل أن تنتهى الأم من روايتها ، ويسود الصمت التام ..

صمت عجيب ، ثقيل ، خيّم على الحجرة كلها ، وأضفى عليها شيئًا عجيبًا من الرهبة ، حتى قطعته الأم ، وهى تتطلّع إلى (لبنى) فى قلق ، قائلة :

ـ (لبنى) .. ماذا بك يا بنيتى ؟ .. إنك تبدين شاحبة للغاية ، و ...

ترنّحت (لبنى) لحظة ، ثم تشبّثت بحافة الباب ، واستعادت تماسكها ، وهى تقول :

ـ لا شىء يا سيّدتى .. إنه دوار بسيط فحسب ، فلم يغمض لى جفن طيلة الليل .

قالت الأم فى قلق :

ـ إذن فأنت تحتاجين إلى النوم يا بنيتى .

لوّحت بكفها ، قائلة :

ـ أنت على حق يا سيدتى .. إننى أحتاج إلى النوم .. سأعود إلى منزلى على الفور ، فقد انتهت نوبتى .

وأسرعت تغادر المكان فى خطوات سريعة ، فغمغم (نجيب) :

ـ ماذا أصابها ؟

قالت أمه مشفقة :

ـ مسكينة .. لم تحتمل معرفة أنك تحب أخرى .

هتف مستنكرًا :

ـ أمى .. (لبنى) تعرف أننى أحب (إيناس) .

قالت فى حنان :

ـ لماذا صدمتها قصتى إذن ؟

لم يجد جوابًا آخر ، فتمتم :

ـ لست أدرى .

شملهما صمت دام لحظات أخرى ، ثم سألته أمه :

ـ تقول : إنك عثرت على جواب السؤال .. أليس كذلك ؟

أجابها فى سرعة :

ـ بلى .. وكان الجواب أسهل مما ينبغى ، حتى لقد أدهشنى أن أستغرق كل هذا الوقت فى البحث عنه .

قالت فى حيرة وحذر :

ـ أهو سهل بالفعل ، إلى هذا الحد ؟ .

قال فى حزم :

ـ بالتأكيد .

تطلعت إليه لحظات فى صمت ، ثم قالت :

ـ ما هو إذن ؟

اعتدل جالسًا على فراشه ، وقال فى حماس :

ـ لقد أخطأنا دائمًا فى النظر إلى هذا الأمر ، فقد كنا ندرس كل جزء منه على حدة .. صحيح أننى مريض وأنها مريضة ، وأن مرضنا غير قابل للشفاء .

قاطعته أمه فى حزن :

ـ دعنا لا نفقد الأمل .

أكمل بنفس الحماس :

ـ بالطبع .. وهذا هو ما أبنى عليه فكرتى كلها .. فمرضنا المشترك يجعل الأمور أكثر بساطة ، وليس العكس .

سألته فى دهشة :

ـ كيف ؟

أجاب بسرعة :

ـ ماذا يحدث لو ..

قاطعه دخول (لبنى) المفاجئ ، وعودتها بوجه أشد شحوبًا ، فالتفت إليها مع أمه فى دهشة ، وسألتها الأم فى قلق :

ـ ماذا حدث يا (لبنى) ؟

رمقتها (لبنى) بنظرة زائغة ، ثم التفتت إليه ، قائلة :

ـ أستاذ (نجيب) .. هل تحب (إيناس) حقًا ؟

شعر بدهشة بالغة ، تبادلها فى نظرة سريعة مع أمه ، قبل أن يجيب :

ـ بالطبع يا (لبنى) .. لماذا هذا السؤال ؟

تجاهلت الشق الثانى من عبارته ، وهى تسأله :

ـ أأنت واثق من أنها ليست نزوة عابرة ؟

هتف مستنكرًا :

ـ نزوة ! .. إننى لم أستجب أبدًا لنزوة عابرة يا (لبنى) ، حتى وأنا بعد شاب صغير .. أى قول هذا ؟ .

حاولت أن تتماسك ، ولكنها لم تستطع كتمان تلك الدموع ، التى انحدرت ساخنة على وجنتيها ، وهى تقول :

ـ فى هذه الحالة يمكننى أن أخبرك ما لدى .. لقد تحقق ما كنت تظنه مستحيلًا .

سألها فى حيرة :

ـ ما هذا بالضبط ؟

تركت دموعها تنساب غزيرة ، وهى تجيب :

ـ المعجزة .. المعجزة يا أستاذ (نجيب) .

ثم ألقت بالمفاجأة .

٨ ـ المعجـزة ..

تركت (إيناس) جسدها يسترخى ، فوق ذلك المقعد الوثير العريض ، فى شرفة تلك الشقة الصغيرة ، التى تطلّ من شارع جانبى على البحر ، وتركت دموعها تسيل على وجهها ، وهى تسبح بأفكارها بعيدًا ..

لم يعد هناك أمل ..

المرض يستشرى فى جسدها ، ويتوغّل فى أعماقها ، ويستولى على صحتها أوّلًا فأولًا ..

ولكنها لم تعد تبالى ..

لقد سئمت العيش بكل هذا العذاب ..

سئمت أن تقاتل وتصارع طيلة الوقت ، فقط لتبقى على قيد الحياة ..

لم تعد تحتمل هوانها ، فى منزل شقيقتها ..

ولإذلالها لتأمين نفقات العلاج ..

لقد فكّرت فى الأمر طويلًا ، وقرّرت اختيار أقل الأمور ضررًا ..

أن تموت ..

أن تتوقف عن جلسات العلاج ، وتترك الطبيعة تقوم بعملها ..

هذا أفضل للجميع ..

وتنهّدت فى عمق ، ومسحت شيئًا من دموعها ، وهى تتذكّر (نجيب) ..

لمحة السعادة الوحيدة ، فى عالم العذاب ..

لم تدر كيف تغلغل فى نفسها بهذه السرعة ، ووجد طريقه إلى قلبها ، فى ظلّ هذه الظروف ! ..

لقد وجدت نفسها تهتم به فى البداية ..

ثم تميل إليه ..

وتحبه ..

وقد يكون من المبالغة أن تعترف بهذا الحب ، ولكن ذلك الشعور الذى انتابها ، عندما جلس إلى جوارها ، وسألها عن اسمها ، شعور لم يسبق لها الاستمتاع بمثله من قبل ..

ومن المؤكّد أنه الحب ..

أو هو الرغبة فى الحب ..

لم يعد بإمكانها التمييز ..

أو حتى اتخاذ القرار ..

ولكن لماذا القلق ؟

إنها لن تلتقى به أبدًا بعد الآن ..

لقد فضّلت أن تفقده ، قبل أن تعجز عن مفارقته ..

وانتبهت من أفكارها على صوت الباب ، وهو يُغلق فى هدوء فأسرعت تجفّف دموعها ، وترفع رأسها ، قائلة :

ـ هل عدت يا (لبنى) ؟

نهضت تستقبل صديقة عمرها ، ولم تكد تزيح أستار النافذة ، حتى انتفض جسدها الضئيل كله ، وخفق قلبها بين ضلوعها فى قوة ..

إنه هو ..

(نجيب) ! ..

لم تصدّق عينيها ، وهى تحدّق فى وجهه ..

ولا هو صدّق عينيه ، وهو يتطلّع إلى وجهها الملائكى الرقيق ، وعينيها الرائعتين ، اللتين تحملان جمال الدنيا كلها ..

وبكل الحب والحنان واللهفة فى أعماقه ، همس :

ـ (إيناس) .. أخيرًا ..

ارتجفت شفتاها ، دون أن يتجاوزهما حرف واحد ، وهى تتطلّع إليه ، فى حين أمسك هو كتفيها ، وهو يستطرد فى لهفة :

ـ إنها معجزة حقيقية .. لم أصدّق عندما أخبرتنى (لبنى) أنك تقيمين معها فى شقتها ، وأنكما صديقتان حميمتان ، منذ طفولتكما .. لم أصدّق حتى رأيتك أمامى الآن ..

همست مبهورة :

ـ كيف حضرت إلى هنا ؟

أتاها صوت (لبنى) من خلفه ، وهى تقول فى خفوت :

ـ أنا أحضرته .

تطلّعت من وراء كتفيه ، ورأت (لبنى) تقف إلى جوار امرأة رقيقة الملامح ، فى منتصف الخمسينات ، يطلّ من عينيها حنان جارف ، وهى تقول :

ـ كيف حالك يا بنيتى .

أجابتها بهمس مبهم ، وهى تنقل بصرها بينهم فى ذهول ، فقادها (نجيب) فى رفق إلى مقعدها ، وجلس على المقعد المقابل لها ، وهو يقول :

ـ من حسن حظى أن وجدتك .. لماذا توقفت عن العلاج .

خفضت عينيها ، متمتمة :

ـ لم يكن من الممكن أن أستمر .

أجابها فى حب :

ـ بل ستستمرين بإذن الله .. سنواصل علاجنا معًا .

رفعت عينيها إليه ، ورددت فى دهشة :

ـ معًا ؟!

مال نحوها ، ورنَّت على وجنتها فى حنان ، وهو يقول :

ـ نعم يا حبيبتى .. معًا .. سنتزوَّج ونواصل حياتنا معًا ، و ...

قاطعته هاتفة ، وجسدها ينتفض فى عنف :

ـ نتزوَّج ؟!

تراجع قائلًا فى قلق :

ـ هل ترفضين الزواج منى ؟

تضرَّج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تغمغم :

ـ مطلقًا .. ولكن كيف نتزوَّج ، والموت هو مصيرنا بلا شك ؟!

ابتسم قائلًا :

ـ الموت هو المصير الحتمى ، لكل كائن حى ، ومن المؤكَّد أن العديدين ، ممن هم أكثر شبابًا وصحة منَّا ، قد يلقون مصرعهم قبلنا ، لسبب أو لآخر ، فلماذا نشغل عقلنا بهذا .

تمتمت :

ـ ولكن الزواج يحتاج إلى ..

قاطعها :

ـ لن يحتاج منا إلى شىء .. لدى دخل يكفينا ويزيد ، وسنقيم مع أمى ، ولسنا نحتاج إلى أثاث جديد ، أو تعقيدات عصرية .. سنتزوج فحسب ، بأبسط وأروع وسيلة ممكنة .

شعرت بسعادة حقيقية ، وهى تهمس :

ـ والأطفال ؟

قال فى حنان :

ـ لن ننجب أطفالًا ، لو أن هذا يقلقك .. صدقينى يا (إيناس) .. هذا أفضل ما نفعله .. صحيح أننا نستعد لاستقبال الموت ، ولكننا لم نمت بعد .. مازلنا على قيد الحياة ، وسننعم بكل لحظة منها ، حتى تحين الساعة ..

ومال نحوها ، ليهمس مستطردًا :

ـ والآن ما قولك ؟.. هل تقبليننى زوجًا ؟

انهمرت الدموع فى عين أمه ..

وبكت (لبنى) فى حرارة ..

وخفضت هى وجهها فى حياء ..

لقد نسيت مرضها وعذابها ، وخفق قلبها بسعادة لا مثيل لها ..

كانت ترتدى نفس الثوب الوردى والحذاء القديم ..

وكان هو يحمل نفس الوجه النحيل الشاحب ..

ولكنهما كانا أكثر أهل الأرض سعادة ..

لقد حققا المعجزة ، وهزما المرض ، والألم ، والحزن ، والخوف ، واليأس ..

وبإرادتهما ، استطاعا معًا إنبات زهرة الحب فى قلب الألم .. وبين الأشواك .

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]